شيخ الأدب الجنسي المكشوف

هنري ميللر

دراسة ونص

ميشيل مسعد

شيخ الأدب الجنسي المكشوف

هنري ميللر

دراسة ونص

ميشيل مسعد



إهداء

إلى مصر .. حبي !!

ليست هذه دراسة مستفيضة عن أعمال هنرى ميللر ، وإنما هى محاولة لإلقاء الضوء على فلسفته وأفكاره . وإن كتابات هذا الكاتب العظيم لهى خير مصدر لمعرفة أدبه ، وأى محاولة لتلخيص آراءه تبدو فاشلة وغير مجدية لأنها تعجز عن إبراز المعنى الفنى للجنس كما صوره بنفسه ، ولا يسعنى إلا أن أطلب الغفران من القارىء على هذه المحاولة .

م . م .

ملحمة فلسفية

لا إله . . لا دولة . . لا مجتمع . .

لقد مات الله ، والدولة لا تستطيع أن تعد الفرد بشىء ، والمجتمع كئيب وقاتل .

تسقط المؤسسات . . لتتحطم القيود .

الفرد مطلق . . الفرد حر . . الفرد هو مركز الكون وإشعاعه . . الفرد هو هدف الخليقة .

دعوا الفرد يمرح . . دعوا الفرد ينطلق . . دعوا الفرد يقبل بشهية على الحياة . إن النفس يجب أن تتحرر من رغبات الفرد المستحوذة عليه والإنسان يجب أن يعيش فى فوضى ، فالفوضى هى الحرية .

. . . .

الكلمات لنيتشه بالطبع ، فلم يكن أحد غيره يستطيع أن يهاجم الدولة والمجتمع ، وأن يقيض كل القيم المعروفة ، ويثير كل هذه الضجة التى حدثت فى أوروبا .

والمتحدث هذه المرة سيدة لا رجل ، والسيدة تدعى إما جولدمان . . والمكان كاليفورنيا من عام ١٩١٣ ، والمستمع هو الفتى هنرى ميللر ابن الثانية والعشرين ، جاء فى رحلة إلى كاليفورنيا من مسقط رأسه مدينة بروكلين ، وانتهز الفرصة وذهب ليستمع إلى المحاضرة التى تلقيها اما جولدمان .

وفى قلق بالغ تلتقط أذنى الشاب المرهف هذه الكلمات ، وفى صدره تجيش شتى النزعات . نزعة إلى الفردية ، ونزعة إلى الحرية ، ونزعة إلى السلبية ، وهى فى حقيقة الأمر موجات فلسفية كان لها دوى عال فى أوروبا فى مستهل القرن العشرين .

والفتى الشاب يخطط فى ذهنه لروايات يكتبها ، فهو يريد أن يكون أديباً ، وأن يكون أديباً مرموقاً له فلسفته الخاصة ، والسؤال الذى وقف فى حلقه : فى أى الموضوعات يكتب ؟ وأى الأشكال يتخذ لكتاباته ؟ لقد أخذ على نفسه أن يكتب عن حياته هو وعن تجاربه الذاتية ، وعن علاقاته بالناس ، وعن المجتمع الذى يعيش فيه ، وعن أمريكا وطنه ؟ .

وينكب الشاب على دراسة فلسفة نيتشه . ثم يترك نيتشه إلى مدرسة فرويد السيكلوچية وهى المدرسة التى أعجب بها كثيراً ، ووجد فيها منفذاً لتفكيره . .

واكتشف ميللر أن نيتشه يغور فى الأعماق ، وأنه يمتص مزايا

المعانى والأشياء الحية ، وأنه يحصل لنفسه من الحقائق على أكبر قسط من الحقائق العادية جداً ، والأحداث الأكثر عادية ، ويجعل من كل هذا وذلك أكبر أثر ممكن على الآخرين .

واكتشف أيضاً من دراسته لفرويد ، أنها تعتمد على التحليل النفسى لتفسير الظواهر والسلوك الإنسانى ، وأنها ترجع كل شىء إلى الجنس ، وإلى الكبت الجنسى .

ولكن الشاب يهز رأسه فى قنوط ويقول : هذا لا يكفى .

وطفق يبحث لنفسه عن آفاق جديدة ، آفاق تلائم طبيعة العصر الذى يعيش فيه ، وتتمشى مع أفكاره ومبادئه .

ليأخذ عن نيتشه فلسفته عن الفرد ، وليأخذ عن فرويد سيكلوجية الجنس .

ولكن . . ليبحث عن إنسان آخر . . إنسان جديد . . إنسان يساعده على اكتشاف عالم آخر ، عالم يمكن فيه التوفيق بين جناحى التجربة اليومية : ارتفاعها ، وعمقها .

ويعجب ميللر بكتابات الكاتب الإنجليزى د . ه . لورانس ، فيأخذ عنه نظرية الاستقطاب بين الرجل والمرأة .

وهنا . . . يحس ميللر أنه قد وضع يده على حجر الزاوية . إن الاستقطاب فى رأيه يمثل بطريقة رمزية الصراع الدائر بين التكوين البيولوجى والتكوين الثقافى للفرد .

ومرة أخرى يهز الشاب رأسه ويقول : حتى هـــذا لا يكفى أيضاً ! .

وأخيراً يجد هنرى ميللر ضالته المنشودة فى فيلسوف يهودى يدعى أوتو رانك .

وأوتو رانك هذا يقول أن الغريزة الجنسية هى مصدر الفن ، وأنها وثيقة الصلة بالحياة العادية البيولوجية للانسان ، وان الفن وليد الرغبة وأن الرغبة — سواء كانت مكشوفة أو مستترة — هى التعبير عن الفردية ، وعن الإنسان الفرد وحده ، وأنها ستظل دائماً بهذا الشكل ، بينما تمثل الغريزة الجنسية شيئاً مشتركا ، شيئاً له صلة بالأعضاء الجنسية عندما تكون فى حالة توافق وهارمونى مع الرغبة الفردية خلال تجربة الحب ، أو فى حالة صراع دائم معه .

ويحس هنرى ميللر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من هدفه .

ومرة أخرى يسمع اما جولدمان وهى تقول صارخة :

الزواج إستعباد المرأة . .

حرروا العلاقات الإنسانية . . حرروا العلاقات العاطفية . . حرروا النشوة الجنسية .

الزواج بدعة الرجـــل ، وهو من أفكار الكنيسة ، ومن إختراع الدولة .

الحب طفل برىء أجرم فى حقه . .

المجتمع الأمريكى مجتمع إستعباد ، ولا يبغى إلا كبت شهوة المرأة وجنسها .

جرروا الحب . .

الحب هو الحدث القائم على العاطفة ، وهو البحث عن الكيان والوجود الإنسانى .

حددوا النسل . . عيشوا بطفل أو طفلين تتمكنوا من تقديم الأكل النظيف ، والمسكن الصحى ، والتربية السليمة لهما .

. . . .

وتثور زوبعة عاتية فى أمريكا حول هذا الكلام . .

ماذا تريد أن تقول جولدمان ؟

إنها تهاجم الزواج ، وتدعو إلى تحرير الحب من كل القيود ، وتهدف إلى إقامة علاقات جنسية غير مشروعة بدون أى رباط مقدس !!

ويبتسم الشاب المظفر بالنصر .

إنه الآن ينتقل من كاتب إلى آخر ، ومن فيلسوف إلى فيلسوف . قرأ كتابات وولت هويتمان ، وأمرسون ، وتوماس مان ، وكانت ، وبلزاك ، وجون جيوفو ، وديستوفيكي وغيرهم . ودرس الفكر الأوروبى ، وكون لنفسه مفهوماً جديداً للحياة يتمثل فى البحث عن الشخصية ، التى لا يمكن اكتشافها إلا بعد الوصول إلى المصدر الغامض لوجودنا .

ولم يجد هنرى ميللر للتعبير عن هذه الشخصية أفضل من أسلوب

سرد حياته الذاتية وتصويرها من الطفولة حتى يتم له تكوين شخصية الفنان . . كما لم يجد فلسفة أفضل من فلسفة أوتو رانك ، الفيلسوف اليهودى ، لتكون مضمون هذا الشكل . فالخلق أو الفن يأتى عن طريق تصوير السيرة الذاتية ، وهى ليست عملية تركيب الماضى الذى ولى ، وإنما هى إعادة صياغة تاريخ حياته بعد فحصه وتمحيصه ، وهذه العملية فى حد ذاتها تعتبر عملية خلق كاملة لأنها تمكنه من أن ينتقى الأشياء ، وأن يعيد صبها فى قالب جديد وفق ما يتراءى له ، وأن يلونها حسب هواه ، وأن يبدل منها ويغير كيفما يشاء ، وعن طريق تطوير العلاقات الأصلية للاحداث والناس ، يستطيع خلق الشخص الذى يرغب الكاتب فى أن يكون عليه فى الوقت الحاضر . فالعملية إذن عملية خلق الذات عن طريق السرد الروائى للسيرة الذاتية للكاتب ، وهى الطريقة الوحيدة التى تمكن الفنان من تشكيل مثله الأخلاقية بمعزل عن الكيان الاجتماعى كله .

وفى مجتمع يتصف بالكبت الجنسى ، تتساوى فيه الحرية الجنسية مع الفردية المتخمة ، وتصبح فيه الحرية الجنسية هى المعادل للحرية الفردية .

وفى ظل ظروف معينة ، يمكن للغريزة الجنسية أن تتساوى بما يأتى به الفرد من خير ، وأن تمثل ، إذا قدر لها أن تمثل ، موت الفرد .

والإنسان لا يستطيع أن يتخلص من عبوديته للغرائز المتمثلة فى

فى الشيوع الجنسى إلا عن طريق الحب ، فالحب هو الذى يفرض على الفرد أن يضحى بكل أو بجزء كبير من ذاته من أجل من يحب .

وهكذا يتمكن ميللر من خلق تركيب درامى يمكنه من الحركة خلال حدود تجاربه ، مستخدماً فى ذلك إزدواجية نيتشة ، واستقطابية لورانس ، ومرتفعاً بتجربته فوق حدود النسيج البيولوجى إلى مرتبة الإحساس بالألوهية .

ومن ثم ، فإن الصراع الدائر فى رواياته لابد أن يكون صراعاً قائماً بين الواقعية والمثالية ، لابد فيه للإنسان من أجل أن يتحرر من عبوديته ويطلق العنان لقوى الخلق عنده ، من أن يترك أساساً حدود الجسد والوجدان ، وأن يصل إلى المثالى أو القدسى . ولابد للبحث أن يكون راسخاً فى الواقعية البيولوجية ، وهى الواقعية الكامنة فى العاطفة الجنسية ، وإلا فإن قبضته على الواقعية ستخور ، كما سيجف فكره ويصبح فكراً مجرداً نظرياً .

وحتى يحافظ الرجل على التوازن بين الواقعية والمثالية ، فإنه محتاج إلى المرأة ، فالمرأة هى المخلوق الوحيد الراسخة جذورها فى الأرض .

وعملية الخلق هى الصراع القائم بين ما هو حيوانى وما هو مقدس . وعندما نجعل الصراع يستمر بهذا الشكل ، فإننا نسلم أنفسنا للحياة وللموت أيضاً . ولكننا عندما نقبل الموت ، وعندما نوقف هذا الصراع ، فإننا نوحد العناصر المتنافرة ، ونجد داخل أنفسنا الرجل والمرأة والأب

والأم . ولذلك ، فإنه فى الجنس والعاطفة يضرب الإنسان جذوره بعمق فى صميم الواقعية .

فلتكن إذن كتاباته فاضحة .

ولتكن مكشوفة ، صريحة ، واقعية ، قحة ، تثير الاشمئزاز ، وتبعث على الغثيان . .

وليس الأدب المكشوف بجديد علينا فهو قديم قدم الزمان ، فكانت فى حضارة مصر القديمة والهند — كما يقول الأستاذ توفيق الحكيم — ترسم وتنحت فى المعابد بعض الأعضاء التناسلية رمزاً للحياة . كانوا يعرفون إذن هم أيضاً أن « لا حياء فى الدين » . . بل إن الشعر العربى القديم وكتب الأدب لمثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما تتحدث عن الطعام ، وكانت أكثر الكتب الأدبية لا تكاد تخلو من باب للأطعمة وباب للباه .

ولكن الفكرة الشائعة وراء كتابة الأدب الفاضح قديماً كانت تهدف إلى إحساس الإنسان بالقرف والإشمئزاز من الجنس والخوف منه ، لما يرتبط به من عقد الذنب والخطيئة .

وجاء ميللر ليقوم بمحاولة مختلفة تماماً .

لقد جعل من الفضح أو الكشف جزءاً من الحياة ، وجزءاً مقبولا من الحياة ، ولكن دون أن يفقد أى من الصدفة الأساسية للأعضاء الأولية . وهو نفس ما يحدث للحب والجنس .

والجنس والحب لا يفترقان .

بل إن الجنس يجب أن يقوم أولا ، وبكامل طاقته قبل أن يشترك الإنسان فى علاقة حب .

وربط الحب بعلاقة جنسية أو العكس ، يمكن أن يشكل خطر القضاء على القدرة .

والعجز الجنسى فى العصر الحديث راجع — فى رأى ميللر — إلى كثرة توكيد الحب والفضيلة وقدسية الزواج وطهارة الأمهات والشقيقات ، ولا يمكن أن يأتى العجز الجنسى كنتيجة لتذوق الجنس وممارسته ، بل إن العالم الآن قد نضب كما تنضب البغى ، والأمل معقود على الجنس فى أن يعيد اصلاح ما أفسده الغير .

وصورة الرحم ، سواء كان الهروب من الرحم ، أو العودة إلى الرحم ، تتخذ شكل الصورة الجنسية .

فالرحم متصل بالشخصية ، وبالكون ، وبالنضوج ، وبالتطور ، وبالكفاح فى الحياة ، وبعزلة الثائر . وهو — فى رأى ميللر — يتخذ أشكالا ثلاث :

رحم الأم ، ورحم الطبيعة ، ورحم الدنيا ، أو ما نسميه رحم الحياة .

وكأن البطل ميللر قد أصبح الإله ديونسيوس إله الشهوة عند

الإغريق ، وقد أقاموا له احتفالا ارتدى فيه عضو الإخصاب وبات يتقبل القرابين من النساء والرجال على حد سواء .

وفى هذا الإطار ، وبهذا المفهوم الفلسفى ، يكتب هنرى ميللر روايته الأولى « مدار السرطان » عام ١٩٣٤ ، فيثير ضجة كبرى ، ويتلقاها النقاد بضيق واشمئزاز . . وأصبح واضحاً أمام هنرى ميللر أن مشواره طويل ، وأن هناك فجوة بينه وبين قارئه ، وليس هناك مثلا واضحا على ذلك إلا عندما حاول الأديب لورانس داريل عام ١٩٣٧ أن يساعد صديقه ميللر على أن يقف على قدميه وذلك بأن يجد له بعض التأييد لدى الكتاب الإنجليز الذين تبوأوا مكانة عظيمة فى الأدب العالمى حينذاك .

فكر فى الكتابة إلى هـ . ج . ويلز ، أو إلى جورج برنارد شو ، أو إلى هافلوك اليز . ثم استقر رأيه أخيرا على جورج برنارد شو . كان شو معروفاً بتشجيعه للكتاب الجدد ، وتقديمهم إلى القراء بشىء من السخاء قد يصل إلى حد المبالغة أحياناً .

وبحماس الشباب وطيشه ، قام لورانس داريل بارسال نسخة مهربة إلى برنارد شو ، ولدهشة داريل البالغة ، رد عليه شو بخطاب بخط يده ــ وهو شىء لم يفعله شو طول حياته ــ وكان ساخطاً وثائراً . كتب يقول :

« إن كان صديقك يتمتع بملكة الكتابة ، إلا أنه يفشل تماماً فى تحقيق أى قيمة فنية لأعماله . إن أعماله ماهى إلا تقرير حرفى

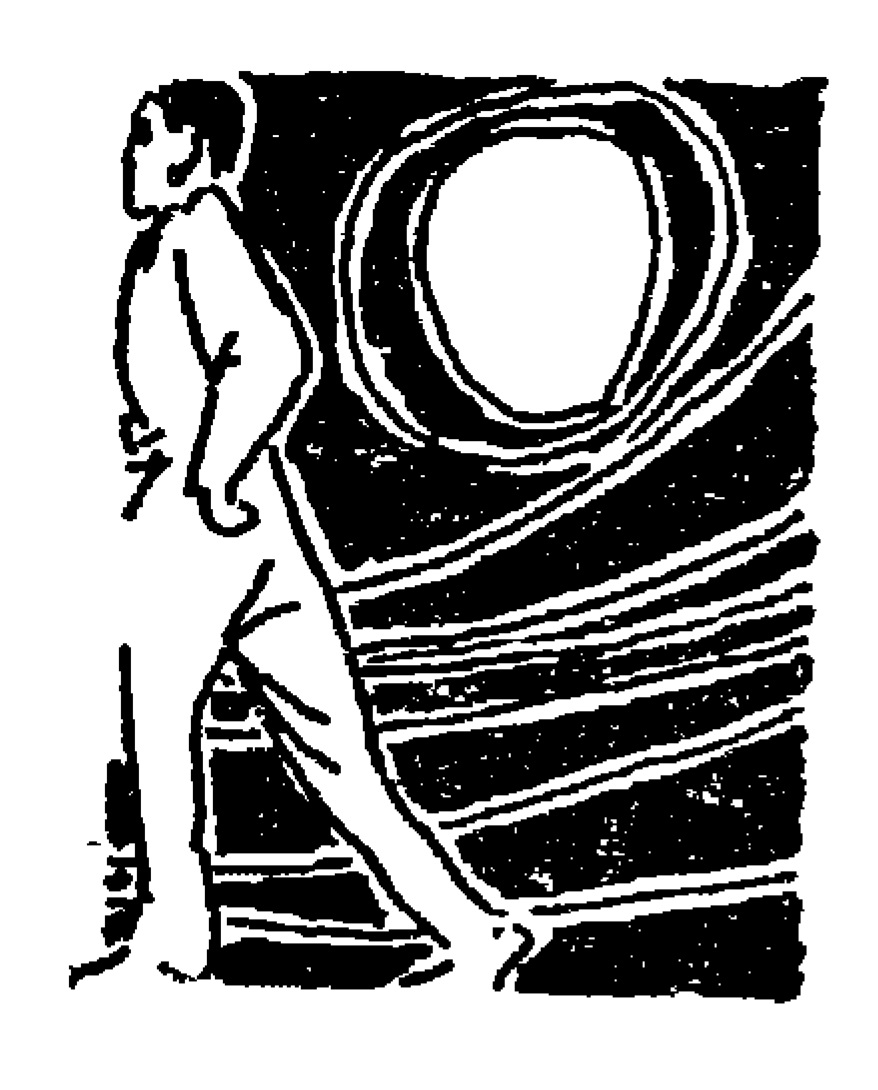
كتبها بلغــة ركيــكة ، مستخدماً اللقطات التصويرية للتعبير عن احساساته ، والذى نتج عن ذلك أن هذه الـكتابة قد ولدت قذارة ، لا لهدف آخر غير هذه القذارة فى حد ذاتها. أرجو أن تبلغ صديقك تحياتى، وقل له أن يـكف عن هذه الحماقة .مازالت أمامه مرحلة طويلة من الـكفاح الشاق ليس لرجال البوليس يد فيها حتى يتمكن من تسجيل اسمه ضمن أسماء كبار الـكتاب. أما أنت يالورانس.. فـكن حذراً . أن يتهمك الناس بأنك أديب داعر ، لهو أمر معوق للغاية . ولـكن أن تـكون مروج كتب داعرة فهذا هو الشيطان بعينه .

أختتم خطابى بقولى أنك مازلت شاباً صغير السن ـ بل كلانا كذلك ـ ولذا فمن الأفضل أن تفعل ما أقوله لك » .

جورج برنارد شو

ولم يـكن الأديب العظيم برنارد شو يفعل أكثر من التعبير عن روح العصر، ويعتبر خطابه هذا خير مثال للدلالة على الفجوة التى قامت بين ميللر والقارىء، والتى كان على ميللر أن يعبرها حتى يصل إلى قارئه المطلوب .

نشـــأة الكاتب



ولد هنرى ميللر فى مدينة بروكلين فى السادس والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٨٩١ لأبوين من أصل ألمانى ، وقضى ما يقرب من عشر سنوات من طفولته مشرداً فى الشوارع والطرقات ، ولم يكن له فى هذه المرحلة أى أصدقاء أو رفاق سوى الصبية الذين كانوا يلعبون معه فى الشوارع والحوارى . ولم يكن يحس بحب نحو والديه ، فقد كان أباه يعامله معاملة جافة ، وكانت أمه تحرمه من عطفها وحبها وترى فيه الولد الفاشل. والحياة فى بروكلين عموماً حياة قذرة . فالمهاجرون من كل بقاع العالم يفدون إلى المدينة الصغيرة ويحولونها إلى ملجىء لإقامتهم. وفى سن السادسة عشر تقع له أول تجربة عاطفية مع فتاة تدعى كورا سيوارد . وفى الثامنة عشر يلتحق بمدرسة سيتى كوليج بنيويورك ، ولكنه يتركها بعد شهرين لثورته على طرق التدريس . ويلتحق بشركة أطلس بورتلاند للأسمنت حيث يقضى بها سبعة سنوات . وفى خلال هذه الفترة ، وهو لم يتعدى الثامنة عشر ، يتعرف على إمراة فى مثل سن أمه ، فيتخذها عشيقة له ، وبعد مضى سبع سنوات على هذه العلاقه يقطع صلته بها بعد أن كان قد قرر الزواج

منها . وفي عام ١٩١٣ يقوم برحلة إلى غرب أمريكا حيث يلتقى هناك يإما جولدمان التي غيرت مجرى حياته .

ويعود إلى بروكلين فى عام ١٩١٤ ليعمل بمحل والده فى بيع الملابس الجاهزة . وفى سن السادسة والعشرين يتزوج لأول مرة فى حياته من بياتريس سيلفاس وكنز ، وهى عازفة بيانو ومدرسة موسيقى ، كان لها تأثيراً كبيرا على كتاباته فيما بعد ، فهى التى تمثل شخصية مودى فى رواية « مدار الجـــدى » التى ظهرت عام ١٩٣٩ ، ورواية « الجنس » — إحدى ثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » التى ظهرت عام ١٩٤٩ .

وبدأ ميللر بعد ذلك يتقلد عدة وظائف مختلفة . التحق أولا بالعمل فترة قصيرة بمصلحة الحرب بواشنطن ، ثم التحق بمكتب البحث الاقتصادى ، ثم بمحلات تشارلز وليام ، وفى عام ١٩٢٠ تقلد وظيفة مدير عام المستخدمين بإدارة المراسلات بالشركة الغربية لاتحاد البرقيات بعد أن عمل بها عدة شهور كمراسل ، ولـكنه يستقيل من عمله بالشركة عام ١٩٢٤ ليتفرغ للـكتابة مصمما على ألا يلتحق بأى عمل على الإطلاق مهما كانت طبيعته . ولـكن ما أن يحل عام ١٩٢٥ حتى يواجه ميللر أكبر ضائقه مالية فى حياته لدرجه أنه كان يسمى هذا العام بعام الفقر . كان يضطر إلى بيع مقالاته للصحف حتى يكسب قوت يومه . وطلق زوجته بياتريس بعد زواج دام سبع سنوات ، وترك لها طفلته ، إذ اكتشف

أنهاامرأة غيورة إلى حد كبير ؛ وتزوج من چين آرت سميث التى كان قد تعرف عليها منذ عام سابق فى إحدى صالات الرقص التى كانت تعمل بها، وهى التى افتتح معها حانة لبيع الخمور عام ١٩٢٧، والتى صورها فى ثلاثية «على خشبة الصليب الأحمر» باسم «مونا» أو «مارا» وهى التى أوعزت إليه بالاستقالة من الشركة الغربيـة لاتحاد البرقيات عام ١٩٢٤ .

وأحس ميللر مع «مونا» بالحرية لأول مـرة فى حياته . لقد اختار الآن أن يؤدى عملا كان يشده إليه باستمرار، وهو الكتابة . فترك عمله بشركة البرقيات التى كان يتفانى فى خدمتها ، وإن كان يكن لها فى قرارة نفسية كل بغض وكراهية .

غير أن حياته مع «مونا» كانت حياة حرية واستعباد فى آن واحد . وتعتبر شخصية «مونا» من أكثر الشخصيات غموضاً فى كتابات هنرى ميللر . وقد نتساءل : ما هى حقيقة «مونا» تماماً ؟ ولكن من الصعب أن نجد إجابة على هذا السؤال . إن مونا هى التى أعطت لكتاباته أبعاداً رمزية غامضة حتى أنها جعلت الواقعية ضرباً من ضروب المستحيل . ونحس أن «مونا» كانت على علاقة برجال آخرين ، وأنها كانت تحصل منهم على نقود كثيرة بطرق خفية . ما نوع هذه العلاقات ، وماطبيعتها ؟ هذا ما يتركه ميللر للقارىء ليكتشفه بنفسه إذ أنه لا يفصح عن طبيعة هذه العلاقات صراحة فى كتاباته . أما علاقة

« مونا » بصديقتها « ستاسيا » التى جاءت لتعيش معهما ، فهى علاقة غير وثيقة ويكتنفها كثير من الشك والغموض .

على أن الفترة من عام ١٩٢٤ -- ١٩٣٠ تعتبر فترة ألم ومعاناة شديدة بالنسبة لميللر ، وقد بلغت ذروتها عندما حاول ميللر الانتحار لشعوره بالتمزق والضياع مع «مونا» . إذ حدث أن طلب ميللر من صديق له يعمل طبيبا أن يعطيه بعض الأقراص المنومة ليتغلب على حالة الأرق التى كانت تنتابه ، وقد أعطاه الطبيب الأقراص التى طلبها ، فقرر ميللر أن يتناولها كلها جرعة واحدة ، وأن ينام على الفراش عارياً تماماً ، وأن يفتح النوافذ كلها ، فإن لم يمت بالمخدر مات بالبرد . ولكنه استيقظ من النوم بعد ١٢ ساعة ، ولدهشته اكتشف أنه لم يمت ، وإنما أصبح فى غاية من الحيوية والنشاط ! !

وكانت لـ «مونا » اليد الذهبية فى أن ينال ميللر حريته كاملة، فهى التى صحبته فى رحلة إلى أوروبا عام ١٩٢٨ مستخدمة فى ذلك النقود التى حصلت عليها من أحد « ضحاياها » ، ثم عادا إلى نيويورك عام ١٩٢٩ ، ولكنه لم يلبث أن سافر إلى أوروبا بمفرده عام ١٩٣٠ بعد أن اقترض عشرة دولارات من أحد أصدقائه . وزار أسبانيا ، ولكنه عاد إلى باريس حيث مكث بها فترة طويلة من الزمن وتعرف على عديد من

الشخصيات الأدبية الهامة . وكانت حياته فى باريس تتصف بالفقر والكفاف ، وهى الصورة الخلفية لكتابه « مدار السرطان » حيث كان يجول متسكعاً فى شوارع باريس ، وينام حيث يجد مكاناً لراحته ، ويأكل خبز يومه بيومه ، ويعمل مصححاً بجريدة شيكاغو تريبيون تارة ، ويعطى الدروس الإنجليزية بمدرسة الليسيه خلال الشتاء تارة أخرى .

وخلال عامان (١٩٣١ و١٩٣٢) من الفقر والذل والبؤس ، عكف ميللر على كتابة روايته « مدار السرطان » وبعد أن تم له نشرها فى عام ١٩٣٤ ، قرر أن يتخذ لنفسه عملاً . وأقام فترة بشقة صديقه ألفريد برليه فى كليشى ، وزار معه مدينة لوكسمبرج . على أنه قام بزيارة خاطفة إلى أمريكا فى الفترة من ديسمبر ١٩٣٤ حتى مارس ١٩٣٥ حيث أجرى فى مكسيكوسيتى توكيل طلاق لزوجته چين آرت سميث أو « مونا » ، ثم عاد لزيارة نيويورك من يناير إلى أبريل من عام ١٩٣٦ حيث كان يعمل بالتحليل النفسى وبمراسلة إحدى الصحف اليومية ، ثم نشر فى نفس العام روايته « الربيع الأسود » .

وفى عام ١٩٣٧ التقى بالأديب لورانس داريل صاحب رباعية الإسكندرية الشهيرة ، وتمت بينهما صداقة قوية ، وهو الذى صحبه فى رحلة إلى لندن حيث تعرف بمشاهير الشخصيات الأدبية مثل ت . س . اليوت . وفى نفس العام أصدر كتابه « العودة إلى أمريكا »

وفى عام ١٩٣٨ أصدر كتابه « ماكس والبلاعم البيض » وبدأ الكتابة لبعض الصحف والمجلات .

أما كتابه الثانى العظيم فهو «مدار الجدى» وقد أصدره عام ١٩٣٩، وفيه يصور ميللر حياته الخاصة منذ أن حاول تثبيت أقدامه كأديب ، وزواجه الأول من عازفة البيانو « بياتريس سيلفاس وكنز » أو «مودى» .وتصور ثلاثية«على خشبه الصليب الأحمر» حياته بعد « مدار السرطان » ، وتأخذنا إلى باريس . وقد ظهر المجلد الأول منها فى جزئين بعنوان « الجنس » *Sexus* عام ١٩٤٩ ، وظهر المجلد الثانى فى جزئين أيضاً بعنوان « الضفيرة » *Plexus* عام ١٩٥٣ ، وظهر المجلد الثالث والأخير بعنوان « الشبكة » *Nexus* عام ١٩٥٩ . ويقول ميللر أن مسئوليته كأديب قد انتهت بظهور هذه الروايه.

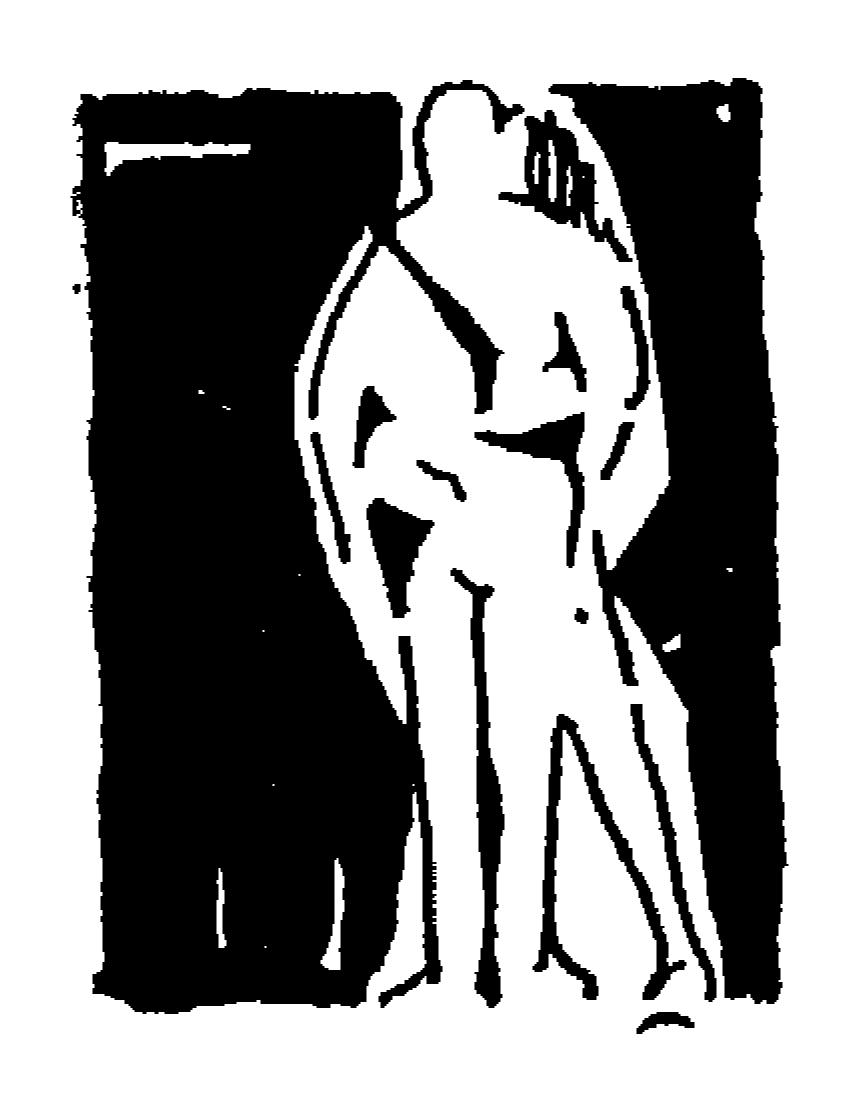
وتندلع نيران الحرب العالمية الثانية ، فيضطر ميللر إلى مغادرة فرنسا ، ويذهب إلى اليونان ليقيم مع صديقه لورانس داريل فى جزيرة كورتو بناء على دعوة تلقاها منه . ويصور ميللر حياته فى بلاد اليونان فى كتابه « تماثيل موروسى » الذى ظهر فى عام ١٩٤١ . وتعتبر الفترة التى قضاها فى بلاد اليونان من أخصب فترات حياته ، وأكثرها نضوجاً ، إذ فيها تحرر ميللر تماماً من كل القيود التى كانت تكتنفه.

ولكن الحرب تطارده فى اليونان مثلما طاردته فى فرنسا من قبل ، فلا يجد مفراً من العودة إلى وطنه أمريكا ، فوصلها فى مارس من عام ١٩٤٠ حيث التقى بأصدقائه القدماء ، وحيث أعطت له الحكومة بيتاً فى كاليفورنيا قبله فى سرور. وعن هذه الرحلة كتب ميللر كتابين : الأول بعنوان « الكابوس المكيف بالهواء » ونشر فى عام ١٩٤٥ ، والثانى بعنوان « تذكر أن تتذكر » وقد نشر فى عام ١٩٤٧ .

ولقد أقام ميللر عدة معارض للوحاته المائية، فقد كان رساما هاويا. ومن أشهر معارضه المعرض الذى أقامه فى لوس أنجيلوس عام ١٩٤٤ ، وهو العام الذى يعتبر عام النجاح والشهرة ، مثلما كان عام ١٩٢٥ عام الفقر والبؤس .

وتزوج ميللر للمرة الثالثة من جانيتا م. لبسكا عام ١٩٤٤ ، ونحن لا نعرف عن هذا الزواج إلا القليل. ولكنه كان زواجاً شؤماً على هنرى ميللر انتهى بأن انفصلت عنه لبسكا تاركة له طفلين ، ويصور ميللر هذه الفترة من حياته فى روايته « بج سير » التى نشرها عام ١٩٥٦ . ثم تزوج للمرة الرابعة من إيف ماك كلير عام ١٩٥٢ ، انتهى أيضاً بالطلاق ، وهو يعيش حالياً وحيداً فى نيويورك ، وإن لم يستقر فى مكان معين بعد .

ميللر الشجاع



ليست شجاعة ميللر ككاتب
مردها إلى المحاولة الجريئة التى قام بها
لتصوير الجنس بصورة مكشوفة ،
وإستخدامه لغة بسيطة سهلة وكلمات عادية شعبية تضعنا فى مأزق أمام محاولة ترجمتها إلى اللغة العربية لأننا إذا قمنا بهذه المحاولة فلا بد أن نترجمها إلى اللغة العامية والا فقدت الكثير من قيمتها الفنيه . ولكن الشيء الفريد عن شجاعة ميللر هو موقفه كإنسان من أوضاع وطنه أمريكا .

فالمعروف أن ميللر عاش حياة مشردة فى طفولته ،وأنه عانى كثيراً من شظف العيش وأن الاقامة لم تستتب له فى أمريكا إلا مؤخراً ،وأنه قضى معظم حياته فى أوروبا باحثاً عن تكوين ذاته كأديب ملاقياً فى ذلك شتى أنواع المعاناة والألم . ولم يكن ذلك لسبب جناه ، وإنما لأنه فى بساطة ثار ضد بلده ، وهاجم تقاليد وطنه ، ورجعيته ، وكبته للحريات بمفاهيمها العريضه .ولذا فهو يدير ظهره لوطنه بعد أن وقف بكل شجاعة وسب الشعب

الأمريكى ورماه بأرنع الصفات وأقذرها بأمل أن يتغير المجتمع الأمريكى يوما ما ، وأن يصحو الشعب الأمريكى من غيبوته .

وعن بلده أمريكا ، يقول ميللر أن أمريكا بلد عظيم ورائع من الناحية الطوبوغرافيه ، ولكنه فى نفس الوقت بلد مخيف . لماذا هو مخيف ؟ لأننا — فى رأى ميللر — إذا جلنا بأنحاء العالم ، فإننا لن نجد بلداً آخر تتسع فيه شقة الإنفصال بين الإنسان والطبيعة مثلما هى فى أمريكا ؛ فالحياة موحشة ، ويصل فيها القلق إلى قمته .

وفى مقدمة كتابه « الكابوس المكيف بالهواء » ، وهو الكتاب الذى يصور فيه ميللر رحلة عودته إلى أمريكا إبان الحرب العالمية الثانية، يقول ميللر أن الشعب الأمريكى يعتبر نفسه من الشعوب المتحررة الديمقراطية ، وأنه شعب عاشق للحرية ، وأنه قد تحرر من كل الأهواء والكراهية. وهذه المسألة — فى رأى ميللر — مسألة مائعة ، لأن الشعب الأمريكى فى الواقع شعب متعجرف همجى ، يسهل تعبئة مشاعره وروحه بأفكار الديمقراطية وبالكتابات الصحفيه وبالمواعظ التى يلقيها رجال الدين ، وبالمظاهرات الصاخبة . وهو يتساءل : ماذا فى إستطاعة أمريكا أن تقدم للعالم بالإضافة إلى ما تقدمه إليه بالفعل من أهوال ومخاطر نتيجة لتقدمها الجنونى ؟ إن إدعاء الشعب الأمريكى بأنه يعيش فى مجتمع حـــر إدعاء كاذب ، وجريمة لا تغتفر . فأمريكا التى كانت

تعتبر فى الماضى أرض المستقبل وبلد الحريات ، أصبحت الآن بلد العرق والجهد والكفاح الزائف ، ولم تعد البلد الذى يناصر المظلومين ، فالمظلومين ليس لهم مكاناً فى أمريكا . . بل إن أمريكاأصبحت تضم الآن ملايين الرجال والنساء المشردين الذين يجوبون الشوارع والطرقات بلا عمل كالخنازير . لقد فقدت أمريكا روح الديمقراطية ، واختفى من أرضها الزعماء المخلصون .

هذا ما قاله هنرى ميللر منذ ثلاثين عاماً ، ولا نجد فى هذا القول غير الصدق والاخلاص ، ولعله كان يتنبأ بحالة العالم التى هى عليه الآن.. العالم الذى أصبح فوق فوهة بركان بسبب تقدم أمريكا الجنونى، وبسبب أسلحتها الفتاكة ،وحروبها الإلكترونية،ومحاولتها السيطرة على شعوب العالم وكبت حرياته . ولذا ، فان هنرى ميللر ليس كاتب روائى ناقم أو ساخط على بلده فحسب ، وإنما هو إنسان يحس بمشاكل عصره ، ويعبر عنها بصراحة تامة تبدو فيها وضوح الرؤية.

إن أمريكا كابوس ، وستظل دائماً كابوساً حتى ولو كانت مكيفة الهواء . إنها تشعل نيران الحرب ، لأن الحرب فى نظرها شىء جميل ، تدافع به عن ذاتها ، وعن وجودها ، وعن حالتها الراهنة ، تلك الحالة التى لا توجد إلا فى عقول ساستها . ومالم يقم الشعب الأمريكى باكتشاف

الحقائق الكامنة فيه ، فإنه سيظل ينتقل من فشل إلى آخر ، وستظل أمريكا ترقد على مسطح واحد وفوق نقطه واحدة سواء كان يسيطر عليها الديمقراطيون أو الجمهوريون أو حتى الفاشستيون أو الشيوعيون .

وميللر له رأى فى الحرب .

إن الحرب شكل من أشكال الجنون ، وهى إما من أنبل الأشياء فى الوجود أو من أقذرها. ولأن الحرب جنون عام ، فالعقلاء لا يقوون على الوقوف ضدها . وحتى يحس الإنسان بطعم السلام ، عليه أولا أن يتذوق مرارة الحرب . وعلى الإنسان أن يسير فى طريق طويل من البطولات حتى يدرك فى النهاية أنه عاقل وحكيم .. لابد للانسان من أن يضحى بعواطفه أو أن يكون ضحية عواطفه بمعنى أدق حتى يرتقى فوق هذه العواطف . ومن ثم ، فلابد من وجود صراع يتضمن شىء أقوى من الصراع من أجل الوطن أو من أجل المبادىء السياسية أو الأيديولوجية . إن الحرب الحقيقية هى ثورة الإنسان ضد طبيعتة المتخمة ، وهى حرب لا تراق فيها دماء بإسم التطور السلمى ، وإنما يرتقى فيها الإنسان إلى مرتبة الملائكة ، وقد ينال النصر ، وقد يهزم كفرد ، ولكنه يجب دائماً أن يكون واثقاً من النصر لأن العالم كله له يقف وراءه .

ميللر الطفل والمدينة المعقدة



يجمع النقاد على أن مدينة بروكلين التى ولد فيها هنرى ميللر كانت ذات أثر كبير على كتاباته، ولا بد لأى قارىء أو دارس لأدب ميللر أن يلم بالجو الذى كان يخيم على المدينة، وبظروفها الاجتماعية، ومناخها الفكرى لأن كل ذلك محفور تماماً فى عقل الكاتب ولأنه كان يشكل الخلفية الذهنية لكتاباته العديدة.

قبل عام ١٨٩٠، أى قبل أن يولد هنرى ميللر بعام واحد، لم تكن مدينة بروكلين إلا مدينة هادئة مثل كل مدن الدنيا التى لم تتطرقها الصناعة بعد، وكان ميللر وهو طفل يملأ عينيه بمنظر المدينة العذراء، ويتنفس هواءها البكر قبل أن تلوثه مداخن المصانع وأقدام العمال وانفاس المهاجرين الذين أتوا من شتى بقاع العالم.

كان ميللر وهو طفل يحب أن يسير فى شوارع وطرقات بروكلين، فهذه من الأشياء التى أثرت فى بناء شخصيته، وله فى ذلك رأى خاص ينفرد به عن دون الكتاب: أن تولد فى الشارع هو أن تعيش متجولا طول حياتك، وأن تعيش حراً.. إن الولادة فى الشارع هى الحوادث، وهى الأحداث، وهى الدراما الحية، وهى الحركة، وهى الحلم الذى يفوق

كل حلم . إنها عملية هارمونى لكل المتناقضات التى تعطى لتجولاتك توكيدا ميتافيزيقيا . فى الشارع تتعرف على حقيقة الآدمين ، ومن ثم فإنك تخلقهم إن عاجلا أو آجلا ، وكل ما لا تجده فى الشارع فهو مزيف وغير حقيقى ، ولا يوجد إلا فى الكتب ، أى فى الأدب .

وتربى ميللر فى جو ألمانى ، فوالداه كما سبق الإشارة ينحدران من أصل ألمانى . وكان ميللر يتكلم الألمانية والإنجليزية بطلاقة حتى بلغ سن دخول المدارس ، وكان يعيش وسط قوم من مختلف الجنسيات، فقد بدأت بروكلين تستقبل وفود المهاجرين من العمال الفنيين والمهرة فى بادىء الأمر ، ثم بدأت تستقبل العمال العاديين فيما بعد . وكان هؤلاء العمال يفدون إليها من ألمانيا وبولندة وإيرلندة ، ثم وصل إليها اليهود المهاجرون من وسط أوروبا . وأخذت الصناعة تنتشر بأقصى سرعة فى بروكلين ، حتى أن ميللر أحس بأن مدينته المحبوبة قد تحولت إلى امرأة مومس . بدأت تقام مساكن للعمال ومساكن للفقراء ، وأخذت الأحياء القديمة الجميلة تهدم وتقام مكانها مبانٍ أخرى حديثة ، وأصبحت المدينة تجمع بين المتناقضات فى مظهرها وأناسها ، وبدأ سكانها الأصليون يندثرون لاختلاطهم بالمهاجرين الجدد على الرغم من محاولتهم الابقاء على تقاليدهم . وفى عام ١٩٠٣ أقيم جسر يربط بين مدينة نيويورك وحى ويليامزبرج، وهو الحى الذى ولد فيه ميللر، وبانشاء هذا الجسر إنتهت آخر

لمسة من لمسات المدينة الهادئة الجميلة ، إذ عن طريق هذا الجسر ، يشاهد الطفل ميللر آلاف المهاجرين الجدد وهم يعبرونه ، لتتضخم بهم المدينة ، وتعجز عن استيعابهم ، وتتعقد بهم الحياة ، وتزداد المشاكل ، وتتطرف المدينة بالخير إلى أقصاه وبالشر إلى أقصاه . ولكن ميللر لم يكن ينظر إلى الخير على أنه خير ، وإلى الشر على أنه شر ، وإنما كان يعتبر ذلك مظهراً من مظاهر الحياة اليومية ، وإن كان قد بدأ يضيق بالمهاجرين الجدد لأنهم خلقوا حياة جديدة كانت ثقيلة على قلبه الصغير ، ولأنه كان يحس بأنه ليست لهم أى طموح أو تطلعات ذاتية ، فنمت فى قلبه كراهية شديدة نحوهم . وكان لأبيه شلة من الأصدقاء ، كانوا يحتسون معه الخمر كل ليلة،وكانوايتحدثون فى موضوعات شتى بكل ذكاء ، ولكن الذكاء هنا لم يكن يعني الفكر، فوالده أصلا لم يقرأ كتاباً واحداً فى حياته . ولا نستطيع أن نحدد بالضبط موضع قدمى ميللر الشاب ،ولا يسعنا إلا أن نضع فى تصورنا المؤثرات التي كانت تحيط به. ثقافة المهاجرين .. التقاليد الرجعية . . ألوان الطعام المختلفة الجديدة . . نفس رائحة الطعام التى لابد كان لها تأثيرا خاصا عليه. كل هذه المؤثرات ساعدت على إدراك المذاق الشخصي لميللر وفلسفته الشوارعية ، وبروكلين تواجه مشكلة امتصاص المهاجرين وأمركتهم ، ثم تلفظ عن نفسها غبار الفقر ، وتسير فى طريق الغنى والمال .

هذا التحول الخطير نجده فى كتابات هنرى ميللر على ثلاثه مراحل :

١ — حياته الأولى فى حى ويليامزبرج ، وهى الصورة التى نجدها فى روايته « الربيع الأسود » التى صدرت عام ١٩٣٦ ، وكتاب « مدار السرطان» الذى صدر عام ١٩٣٤ .

٢ — مرحلة غير محددة تماما ، وإن كان ميللر يسميها مرحلة « شارع الأحزان » ويقصد به شارع « ديكاتير » . وأغلب الظن أن هذا الشارع يرتبط فى حياته بعلاقة حب فى طور المراهقة ، وربما يكون الحزن هنا هو الحزن على ما فقده فى حياته الأولى فى بروكلين التى كانت تروق له .

٣ — الفترة من عام ١٩٠٩ — ١٩١٧ أى بعد أن ترك المدرسة وتزوج لأول مرة فى حياته من بياتريس ، وهى الفترة التى تتصف بمزاولة عدة أنشطة كالأكل والشرب والجنس ، وقراءة كتب الأدباء والفلاسفة الأوروبيين الذين شكلوا فلسفته فيما بعد .

على أننا يجب أن نؤكد أن ميللر قد تعلم الكثير من الشوارع .

إن منظر صدر امرأة رجراج يثيرنا ، لهو صدر مترهل لمومس انحنت بصدرها فى ليلة مطيرة ، وكشفت لنا لأول مرة عن العجب الكامن فى نهديها الحالبتين . وإذا ما أثارنا التفكير فى منظر ممر مبلل بالمطر أو الماء ، فإن السبب راجع إلى أننا عند نهاية مرحلة عمرنا من

السنة السابعة يأتى هذا المنظر ليكون بمثابة تحذير لنا لما قد يحدث فى المستقبل عندما نقف محملقين بلا تفكير فى السائل اللامع من مرآة الشارع .. حتى الرائحة لها تأثير كبير أيضاً . رائحة الخبز ، ورائحة بول الخيول النفاذة فى الاسطبلات ، ورائحة الحديد المتوهج بالنار واختلاطه باللحم عندما يقوم الطبيب البيطرى باخصاء الخيول ، ورائحة شعر المرأة وهى تغسله الذى يشبه رائحة بركة عفنة ، والتمييز بين روائح العطور المختلفة ، وبين الأذواق ، وبين الناس ، وبين الأحداث . . كل هذه الأشياء كانت موضع إحساس شديد عند ميللر لم يفقده أبداً ، ونلمسه بوضوح فى كل كتاباته ، فهو لم يترك حقيقة واحدة أو شعوراً واحداً دون أن يسجله بقلمه .

ويصور ميللر إحساسه بهذه الحياة فى كتابه « مدار الجدى » ، حيث يحدثنا عن قيامه بعملية جنسية كاملة فى ممر الردهة ويتذكر حياته عندما كان يسير متسكعا فى الشوارع .

ولكن الصورة سرعان ما تتغير ، وتصبح هذه الشوارع قذرة ممعضة ، تفقد كل سحرها وجاذبيتها ، ويتحول ميللر عنها تماماً .

ميللر وقضية الشكل الفنى



لم تكن قضية الشكل الفنى تهم ميللر كثيراً ، بقدر ما كان يهمه أن يبعث فى رواياته بأحاسيس الإنسان بالحياة عن طريق تسجيل الصراع لعملية الميلاد بمنتهى الدقة . ولقد اختار لنفسه أن يكتب بطريقة السرد الذاتى، أو الرواية الذاتية على الرغم من أن كتبه تحمل وحدة الشكل والبناء . ولقد عاب عليه النقاد استخدامه لهذا التكنيك لما فيه من ضعف ، ولقد دافع عن نفسه بقوله بأنه ليس مثل إرنست هيمنجواى الذى يكتب بالسنتيمتر ، كما أنه ليس فى نفس الوقت بالكاتب الغافل الذى تفوته لهجة الكتابة من ذات المعون . فالشكل الذى اختاره لرواياته هو شكل « الرواية الذاتية » . . والرواية الذاتية اصطلاح من عنده، لأنه شكل — على حد قوله — يناسب مزاجه تماماً ، ويمكنه فى النهاية من خلق كتابة ذاتية مغايرة للكتابة التى كانت عليها من قبل .

ويقترب ميللر بهذا التكنيك من تكنيك كتابة المذكرات ، وإن كان يتميز عنه بأن البطل الراوى هو موضوع العمل الفنى فى نفس الوقت . فالكاتب يغور إلى أعماق الأشياء ، أو بمعنى أدق ، يغور

فى « بطن الحوت » ليكتشف أسرار النفس البشرية ، ويكتشف الموضوع الذى يعالجه ، ثم يعيد علينا سرد قصة حياته . فالمادة هنا هى ذكريات حياته الخاصة ، ذكريات الماضى والحاضر ، حتى استطاع فى النهاية أن يصبح أديباً .

وتكشف لنا عبارة «بطن الحوت» عن العلاقة بين الفن والحياة. فالغور فى بطن الحوت هو النزول إلى الموت . ولكن النزول إلى الموت بالإرادة ، يقود إلى اكتشاف النور فجأة . فالحياة فى بطن الحوت هى حياة التناقض التى يعيشها الكاتب أو الفنان ، وهى شكل من أشكال الحياة فى الموت . أما الصعود إلى الحياة مرة ثانية فلا يعنى الصعود إلى الحياة العصرية التى يعيشها الإنسان ، وإنما يعنى الصعود إلى الحياة الخلاقة ، أو بمعنى أصح ، إن استعارة الفنان لعبارة « بطن الحوت » لن تجعله يصعد إلى الحياة أبداً ، فلقد أخذ معه الحياة إلى بطن الحوت ، وصنع لنفسه عالماً جديداً هناك .

وفى هذا الإطار ، كتب هنرى ميللر كل رواياته .

والبحث عن شخصية الإنسان فى الحياة ، هو مفتاح الشكل الفنى فى الرواية الذاتية . وهنا يشبه ميللر شعراء العصر الرومانتيكى إلى حد كبير ، وذلك فى محاولة الغور إلى المستوى الأدنى للحياة النفسية ، والخروج عن الذات لاكتشاف العلاقة القائمة بين الفرد والكون ، والتفاعل الناشىء بين الفن والحياة .

والرواية الذاتية ذات طابع مميز يختلف عن الأدب الخيالى والأدب التركيبى ، كما تختلف أيضا عن الأدب الشخصى والسيرة الذاتية .

ويستخدم ميللر مستويات عدة من التكنيك : القصة الواقعية ، والقصة الفانتزيا أو تتابع الاحلام . وتتحمل القصة الواقعية ثقل المضمون اللاشعورى ، وتظهر المادة اللاشعورية فى أعماله بطريقة غير مباشرة على هيئة أحلام أو تحقيق رغبات مكبوته لا شعورية .

وإذا كان النقاد يطلقون على ميللر لفظ الكاتب الواقعى ، إلا أنه ليس واقعياً بالمعنى المفهوم لكلمة الواقعية . فهو رومانسى ، وإن كان لا يميل إلى المثالية ؛ وهو كاتب رمزى من الدرجة الأولى ، ينقب فى أغوار النفس البشرية ، ويبحث عن الدوافع والمؤثرات التى ينتج عنها الحدث الإنسانى ، مؤمناً بأن هذه الدوافع والمؤثرات شديدة الصلة بالأعضاء الجنسية ، ولذا فإن منسوب الواقعية عنده عميق الجذور فى مسألة العقد البيولوجية والوجود السيكلوجى أيضاً .

والموضوعات التى يعالجها ميللر فى كتاباته موضوعات حية ، وموضوعه الأساسى الذى تدور حوله كل رواياته هو أن الفرد يجب أن يعيش فى حرية واستقلال تام . وفى هذا المضمون يقوم ميللر بمحاولة اكتشاف إمكانيات وحدود الإنسان الفرد خلال رحلة الحياة .

ميللر كاتب الجنس المكشوف



صادر الرقيب معظم كتابات هنرى ميللر لأنها من الأدب المكشوف الإباحى الفاضح ، وإن كانت هناك بعض الكتب التى نشرت له فى أمريكا .

ويقول ميللر أن كتبه ليست عن الجنس ، ولكنها عن تحرر الذات البشرية . وإذا كان هناك قارىء مغروراً يتحول عن قراءة كتبه لأنه يجدها كتبا داعرة ، كتبت بلغة المراهقين ، فما من شك أنه يقع فى خطأ كبير ، لأنه لو تمعن قليلا فى قراءتها لغير رأيه على الفور .

وتذكرنا كتابات هنرى ميللر بالعبادات القديمة التى كانت تقدم فيها القرابين لعضو الإخصاب عند الذكر ، وهى عبادة سبقت نظامنا الدينى بآلاف السنين ، وشكلت قبل ظهور المسيحية والإسلام العنصر الأساسى لكل العبادات الدينية القديمة فى العالم أجمع . ولقد وجد الناس فى عضو الإخصاب أو فى صورته رمزاً كبيراً على القوى الخلاقة التى تهب الحياة للطبيعة ، ولم ينظروا إليه على أنه أداة من أدوات الخطيئة أو الزنا .

وتتجلى هذه العبادة فى كتاب « الجنس » *Sexus* حيث يظهر فيها عضو الإخصاب على أنه رمز للسمو على قوى الطبيعة وليس على أنه رمز للخضوع لها . ويرى ميللر أن الرقصات الجنسية التى كانت تدور حول عضو الإخصاب ما هى فى الواقع إلا روح تعمل من داخل الغريزة ، وإذا

كان الإنسان القديم قد عرف طريقة عبادة عضو الإخصاب ، فليس ذلك إلا تعبيراً عن محاولته السمو على اضطرابات الخلق. ولذا ، فإن هذه الرقصة تعتبر من انتصارات الإنسان القوية فى الحياة .

ولقد وجد ميللر فى أفريقيا رقصة شائعة بين القبائل تتخذ شكل الشخصية المجهولة، وأنها ذات هيبة قدسيــة وفجور فى ذات الوقت ، إذ ينتصب فيها عضو الإخصاب حتى يصبح قطعــة من الحديد الصلب ، ليست موجهة إلى امرأة معينة بالذات، وإنما هى موجهة إلى أى عضو نسائى فى القبيلة حيث تقف الأرواح جماعة فى طابور النــكاح . وعندما يسمو الإنسان بروحه فوق عالم الحيوان ، ويدخل فى طقوس من عنـــده يتنــكر لها ، فإنه حينئذ يدعى بأنه قد جعل من نفسه مخلوقا سامياً فوق مستوى المضاجعة الجنسية فى حد ذاتها . وعليه ، فإن رواية « الجنس » *Sexus* تعتبر من هذه الناحية أعلى نقطة تصل فيها رقصة الإخصاب إلى قمتها.

ولقد اكتشف ميللر أن العالم كله عالم حساس، كما اكتشف أن العالم يسير فى رحلة نحو الوجدان المطلق الذى يعنى الله ، فالإنسان ــ فى رأى ميللر ــ هو الله على هيئة جنين ، فإذا ما وصل إلى هذه النقطة ، انتهى اليأس من الحياة . وتحت قاع السلم ، أى عند الحيوان المنوى ، توجد الغبطة الموجودة أعلى السلم ، أى عند الله . فالله هو حاصل جمع جميع الحيوانات المنوية الذى غدى الوجدان المطلق . وبين القاع والقمة ، لا توجد محطة وقوف ولا توجد محطة وسط . إن النهر ينبع من مكان ما على الجبال

وتتدفق مياهه نحو البحر . وفوق هذا النهر يسير قارب يقودنا إلى الله ، وهو قارب تحت أمرنا ، لا يهاب الرياح . فالحياة إذن رحلة ، والتيار جارف ، ولا بد للانسان من أن يوجه دفة القارب بنفسه لأن الحياة مملوءة بالطين والوحل ، وإن كانت ستهل علينا من وسط هذا الطين صخرة السعادة أو الذات العادية .

ومنذ بلغ هنرى ميللر العاشرة من عمره ، وفى نفسه يتولد شعور جارف نحو الجنس .. الجنس الذى بدى له فى طور المراهقة أمراً غامضاً غير معروف . ولأنه رجل أمريكى ، ولأنه ابن المدينة ، فهو مرتبط بالبيئة الأمريكية ، وهو يقدم لنا الجنس والحب على أنهما شيئين مناقضين لبعضهما بشيء من الغرابة . فالجنس قد يصبح غامضاً أحياناً ، وقد يصبح عادياً أحياناً أخرى .

وكانت لميللر علاقة حب مخيفة وهو فى طور المراهقة ، ولكنه مع ذلك لم يفقد شيئاً من اهتمامه الكبير بالأعضاء الجنسية وبوظائف الجنس . ولقد انقسم النقاد إلى شقين حول هذه المسألة . منهم من يفسر الجنس عند ميللر على أنه وصف مبالغ فيه . ومنهم من يرى أن اهتمامه بالجنس ضرب من ضروب المراهقة . والواقع أن وصف ميللر للجنس أمر عادى وطبيعى جداً بالنسبة للذكر الأمريكى . ويؤكد ميللر بنفسه أن حياته الجنسية حياة عادية للغاية . وتوضح لنا رواية « مدار الجدى » ، « الجنس » مدى اهتمامه بالجنس الغامض عند ما كان طفلا ، ثم استخدامه للأدوات الجنسية عندما وصل سن البلوغ .

وتصور روايات ميللر : « مدار السرطان » ، « مدار الجدي » وثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » حياة ميللر وتطورها إلى أن أصبح فناناً وأديباً ، متخذاً الجنس موضوعاً أساسياً لهذه الروايات خلال مراحل تطوره . ولكن موضوع الجنس يختلف في جوهره وهدفه من مرحلة إلى أخرى . فهو في السنوات الأولى لا يختلف في هدفه عن الهدف العام ، حيث كان ميللر يهدف إلى ايجاد مصالحة أو مزاوجة بين الواقعية والمثالية مع تجنب التجريد ، وأن يحكم قبضة يده على تحسين وتطوير خبراته في الحياة .

وكان الجنس في أمريكا في ذلك الحين قد أصبح مجرد نظرية شائعة ، وكانت الروح التجارية قد غزت محيط الجنس مثلما غزت كل المجالات الأخرى . وكان ميللر يقف مشتتاً بين اتجاهين رئيسيين في أمريكا : اتجاه التقليد الأوروبي الذي كان ما زال قائماً وموجوداً في مجتمعات الهجرة ، واتجاه التقليد البيوريتاني أو الديني الذي كان هو الآخر مازال سائداً في أمريكا . وتصور لنا الشخصيات في روايات «مدار الجدى» ، و «مدار السرطان» ، وثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » علامة تدهور الجنس السليم في أمريكا ، بهدف اكتشاف الفرق بين الأنثى والذكر . ولذا ، تتسم هذه المرحلة من كتاباته بالشكل المرئي للجنس . وفي كتابه «دنيا الجنس» *The World of Sex* يؤكد ميللر أهمية الرؤيا للأعضاء الجنسية لأنها هي التي توصلنا إلى حل اللغز الخفي الكامن داخل هذه الأعضاء .

وأحد شخصيات رواية «مدار السرطان» ويدعى ڤان نوردن، قضى طول حياته يبحث ويكتشف الأعضاء الجنسية والتناسلية ، ويقول ميللر عن طريق هذه الشخصية أن الجنس ليست له قواعد تجريدية؛ وإنما الحرية ، والحرية وحدها هى أساس كل شئ . ويقيم ميللر مقارنة بينه وبين ڤان نوردن . كلاهما يحسان بعدم المسئولية ، وكلاهما يبحثان عن المتعة ، وكلاهما يبحثان عن المرأة بنهم وشغف . غير أن ميللر لا يجرى وراء المرأة وإنما ينتظرها حتى تصادفه ، وهو ذو دوافع جنسية قوية ، ولكن هذه الدوافع لا تستحوذ عليه ، ومن الممكن تعبئة قواه الجنسية والعاطفية ورغبته فى الحب فى التو واللحظة . وعندما تشغله عملية جنسية فإنه يركز لها كل قواه ، حتى إذا ما فرغ منها وأصبح خالياً ، يجد نفسه طليقاً لاداء أعمال أخرى. فهو إما مشغولا بالطعام ، وإما مشغولا بالتنزه أو التريض، وإما مشغولا بالعمل. أما ڤان نوردن فإنه لا يحس بالحرية أبداً وإنما يطارده الجنس باستمرار فى كل مكان وفى كل لحظة كما لو أن هذا الجنس قد أصبح روحه الثانية ، وهو مع ذلك عديم العاطفة من الأساس . ويحكى ميللر واقعتين عن ڤان نوردن : الأولى حينما يصوره أثناء محاولته مضاجعة فتاة ولكنه يعجز عن مضاجعتها ، والثانية عندما يلتقى به ميللر فى باريس بعد غيبة طويلة ، وفى هذا اللقاء يصور ميللر شخصية ڤان نوردن بطريقة تهكمية ساخرة : فهو رجل

شاذ ، غريب الأطوار ، أصابه مغص حاد فى معدته من كثرة ممارسة الجنس .

أما النشاط الجنسى مثلما نلمسه فى كتابات ميللر ، فإنه يحدث قبل وبعد زواجه الأول بعدة سنوات . ويصف ميللر هذا النشاط من هذه المرحلة بطريقة واضحة فى رواية « الجنس » حيث تظهر موهبته وقدرته الجنسية كاملة . ويعتقد كثير من النقـــــاد أن ميللر فى هذه الروايات (مدار السرطان — مدار الجدى — الثلاثية) ليس مثير ومقلق ومتعب فحسب ، وإنما هو فظيع ووحش وشنيع . ويخرج علينا ميللر كما لو أنه بطل ، وبطل جنسى مغوار ، بل ربما أكثر من بطل . فهو الإله بريابوس إله القوة الجنسية عند الاغريق . إنه إله رجل أو رجل إله ، تبدو عليه علامات الذكورة القوية وإن كان عن غير قصد وبدون كبت .. فهو حر طليق ، له علاقات جنسية شائعة سواء كان بمفرده أو فى جماعات .

ويذكر ميللر أنه عاد ذات ليلة متأخراً مع مونا (مارا) ، وأنه عندما كان يوصلها حتى باب بيتها ، أخذا فى صنع الحب ، ولقد استندا على جذع شجرة ، ولـكن قطة فزعة قفزت فوقهما من أعلى الشجرة فأفسدت عليهما اللذة ، فسارا قليلا إلى مـكان خال ثم عادا إلى نفس الشجرة ، وبدآ فى صنع الحب من جديد ، ومع عدم الإحساس بالراحة ، فإنهما يفترشان الأرض ......

وتبدو دقة ميللر واضحة فى هذه الحادثة ، فهو يصف المـكان

كما لو كان فى غرفة نوم بابها موصد بإحكام . ولكنه مع ذلك يتركنا نسترق السمع ، ونتلصص عليه من فتحة الباب الضيقة لنرى المنظر بأكمله ، وتزداد حدقة عينانا إتساعاً من الدهشة . . ومن الناحية السيكلوجية ، فإن النقاد يرون فى هذه الواقعة تعبيراً صادقاً عما يجيش فى صدر الكاتب من ميول عدوانية أثنـاء ممارسة الجنس . وهذا الأسلوب يتضح لنا فى صفحات كثيرة من رواية « مدار الجدى » و « الثلاثية » . وهو مع مونا يتخذ أسلوب العنف البدائى تطبيقاً لما يؤمن به نحوها ، وهو مع عموم النساء يتخذ أسلوب الجنس السادى ، ويتوقف الجنس على أن يكون مصدرا للذة ، بقدر ما يصبح مصدراً للألم المبرح .

ويصور ميللر حياته منذ البلوغ حتى سن الخامسة والعشرون على أنها فترة النشاط الجنسى . وقد تدهش حينما تعلم أنه لم يكن يستحى أن يمارس الجنس بطريقة فاجرة . فهو تارة يمارسه مع الزوجات ، وتارة مع الحموات ، وتارة مع الصديقات . وليس هناك مكان محدد ، ولا زمان أيضاً . فالمكان والزمان لا يهمان .. قد يكون ذلك فى أحد مكاتب الشركة الغربية لاتحاد البرقيات ، وقد يكون فى التاكسى ، وقد يكون فى مخدع الزوجية مع امرأة أخرى غير زوجته التى تنام إلى جواره ، وقد يكون بمفرده أو مع جماعة ، وقد يكون مع امرأة نائمة فى

حجرة الاستراحة . فالعلاقات الجنسية هنا علاقات غير ثابتة وإنما هى علاقات عرضية تأتى بالصدفة .

وهو مثلا يحكى لنا أنه استقل تاكسى مع زوجته مونا ذات مساء ، وكان التاكسى يزرع طرقات باريس على غير هدى . وهنا تقرر مارا (مونا) أن تصنع الحب مع زوجها ميللر ، الذى لا يتردد هو الآخر فى ذلك . ويظل التاكسى يسير حتى مطلع الفجر ونشوة الحب تسكرهما ، وينظر ميللر فجأة من نافذة السيارة ، فيرى نظرة دهشة مرتسمة على وجه شرطى ، فينبه مونا إلى ذلك التى ترفض أن تصغى إليه . . .

ولا يسع القارىء إلا أن يقف طويلا متأملا تلك اللوحات الفنية التى يصورها ميللر بكل واقعية . فهى ليست لوحات جنسية مجردة وإنما هى لوحات قائمة على تجربة حقيقية ، تفوق الواقع فى تصويرها . الجنس هنا عملية سامية رفيعة ، يطفى عليها الفنان من فرشاته رموزاً قوية، ويحدد لها أبعادها وقدراتها وأحجامها، دون أن يخالجه أدنى شعور بالندم بعيد كل لوحة .

ويقول النقاد أن ميللر عندما كتب روايته « الجنس » لابد أنه كانت تختمر فى ذهنه فكرة معينة وإلا لما سماها بهذا الإسم . على أنه فى هذا الكتاب يذكر لنا ميللر شيئاً عن حبه لفتاة فى فترة المراهقة تدعى « أونا جيفورد » وعلاقته بفتاة أخرى تدعى « مريان بينتر »

وهى تشبه إلى حد كبير زوجته بياتريس. أحب ميللر هاتين الفتاتين عن بعد، وعندما لم يستطع الزواج،أوتكوين أسرة فى ذلك الوقت، بدى له أن فكرة المعيشة فى مجتمع ضرب من ضروب الخيال . وفى ظل حب المراهقة الضعيف ، استيقظت الغريزة الجنسية ، ولم تخمد إلا بعد أن انتهى الشوط كله . ولا يعالج ميللر الحرية الجنسية على أنها شىء مدمر أو شرير ، فالجنس والحب عنده شيئان متناقضان ، ولكن يجب أن يتحدا ويكونان قوة واحدة .

والحب هو أسمى درجات الحياة . إنه مثل حب الله لمخلوقاته دون تمييز بين اللون أو الجنس أو العنصر أو المكان أو الزمان. وميللر رجل يحب الطعام ، ويحب الخمر ويحب النساء . أما الزواج من امرأة واحدة ، أو من رجل واحد مدى الحياة ، أو هذا الشىء الذى نسميه الفضيلة ، فكل هذه أشياء لم نجنى منها إلا البؤس والحرب والعبودية والضعف . أما الخضوع للشهوة والإستسلام لها فذلك يؤدى إلى السلام والسعادة .

والجنس فى كتب ميللر وجبة طعام شهية . وهو يربط بين الميلاد والجوع، وبين الجنس والشهوة كأمر طبيعى . فنى عالم الأحلام والفانتزيا تتحول هذه الأشياء إلى بعضها البعض ، وهو يقول أن العالم بدى له كما لو كان رحماً صناعياً أو سجناً ، وكما لو أن كل واحد، وكل شىء قد

تآمر ضده لإدخاله الرحم من جديد بعد أن كان قد انفصل عنه لتوه .

وميللر رجل جائع . . جائع . . جائع .

وهو يقول :

« إنى دائماً جوعان . إنى أحس بجوع شديد . أنا لا أشبع أبداً . الجوع فوق كل شيء . فوق الطعام ، وفوق الجنس وفوق الروح . أنا لا آكل . أنا أربط نفسى كالأميبا بكل كسرة خبز أجدها . إذا أكلت كسرة خبز ، انشطرت مثنى وثلاث ، وتكاثرت إلى حيوانات تطفو باحثة عن كسرة خبز جديدة . وتستمر الحالة كما لو أننى قد أصبت بدوار البحر . والنساء أيضاً قد أصبحن فى نظرى مثل كسرة الخبز . بعد أن أصل نفسى بين أفترسهن وأنا أخوض طريقى خلال الجسد والعقل والروح ، ثم أنشطر مرة أخرى ».

هذا الجوع ، وهذه الشهوة ، وهذه الشهية ، وهذا النهم الشديد على الحياة ، هى كل ما يربط بين ميللر وبين العاطفة ، فنحن لا نفتقد شيئا فى هذا العالم قدر افتقادنا للعاطفة . فى هذا العالم لا توجد إلا الأفكار ، وهى أفكار عقيمة لا تساعد على الحياة .



المـرأة فى أدب ميللر

يقدم لنا ميللر الشخصيات النسائية فى كتبه فى طرق شتى .

وخلال الفترة الأولى من شبابه ، يقدم لنا النساء المعروفات بعدوانيتهم للمجتمع وللجنس . فالمرأة هنا هى التى ينبذها الناس ، وهى التى لايقبلها المجتمع تحت سمائه . . وعلاقات ميللر الجنسية فى هذه المرحلة علاقات غير ثابتة . يلتقى بامرأة هنا وهناك ، وهى غالباً امرأة مساوية له فى رغبتها الجنسية ولـكنها فى نفس الوقت تنتظر منه أن يراوغها وأن يطاردها وأن يستحثها ، حتى إذا ما أثيرت لفظت عن جنسها بطريقة جهنمية .

وليس معنى هذا أن الجنس عملية تعرية الثوب عن الذات البشرية . . وليس معنى هذا أيضاً أننا لانحس بأي متعة فنية فى كتابات ميللر ، بل على العكس ، إننا نحس بالمتعة الفنية ، وننغمس أيضاً فى الإحساس باللذة بهذا الجنس . وحتى إذا كان ميللر يدعى بأنه لم يكتب عن حياته الشخصية ، فإنه يعترف فى صراحة أن كتبه هى المعادل الرمزى لحياته الذاتية ، وليست مجرد سرد أحداث هذه الحياة .

واللغة التى يستخدمها ميللر فى كتاباته لغة تنتهك فى وضوح كل

القيم والتقاليد الأمريكيه ، فهو عند رسم شخصياته النسائية ، لا يستخدم كلمات وصفيــة مثل الـكلمات التى كان يستخدمها د . هـ . لورانس . لقد كان يبحث عن أثر يختلف عن الأثر الذى كان يهدف إليه لورانس فى رواية «عشيق الليدى تشارلى» مثلا، وإنما هو يستخدم مجموعة من الـكلمات والألفاظ المتراصة بجانب بعضها البعض التى قد تقلق القارىء الحساس إلى حد ما .

ولو أننا أتينا بكل أطباء التشريح وطلبنا منهم أن يقوموا بتشريح رحم المرأة ، لما استطاع واحد منهم أن يفعل مثلما فعل ميللر ، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن ميللر قد فاقهم جميعاً .

وقد لا تـكون هذه النقطة فى صالح ميللر الفنان ، لما هناك من فرق كبير بين الفن والعلم ، ولـكننا أمام تشريحات ميللر الفنان فإنه لا يسعنا إلا أن نقف مكتوفى الأيدى ، مبهورى الأعين ، لما تبعثه هذه التشريحات فى داخلنا من مشاعر رقيقة حساسة نحو المرأة والجنس ، ونحو التجربة الحية ، حتى أننا نـكاد نسجد خاشعين أمام قدسية الجنس ورهبته . إن ميللر يضع نفسه داخل الرحم ، ويعيش فيه ، ويصفه لنا بأدق تفاصيله وأجزاءه ، ويشرح لنا ألوانه ، ويفسر لنا تركيباته ، متخذاً أسلوب المقارنة ، ومعطياً لنا أحاسيسه تجاهه ، وهو بهذه الطريقة يجعل المرأة تقف ناسكة فى محراب الرجل ، تطلبه وتسعى إليه فى كل أوقات الحياة .

وفى إحدى صفحات رواية « الشبكة » *Nexus* يصور لنا ميللر حياته وحيداً فى باريس. لم تكن زوجته معه فتنتابه رغبة جامحة نحو الجنس . وهنا يفكر فى جسد زوجته مونا المتغير الديناميكى ، وظل يتسكع على هذه الحالة حتى التقط لنفسه فتاة من إحدى صالات الرقص ، وعندما أعجب بها ، سأل نفسه : لماذا لا يتزوج من فتاة سهلة كهذه الفتاة ؟ ثم يحدثنا قائلا :

« فى اللحظة التى بدأت أقارن فيها بين جسدها وجسد مونا ، اتضح لى أن ذلك أمراً مفروغ منه . فمهما كانت مزاياها من ناحية اللحم والدم ، فهى فى النهاية لحم ودم ، وليس فيهـــا الشىء الكثير الذى لا تستطيع أن تراه أو تلمسه ، أو تسمعه أو تشمه . أما مع مونا ، فإن الأمر يختلف تماما . إن أى جزء من جسدها كفيل بأن يشعل النار فى جسدى . والغريب أن جسدها لم يكن جسداً متكاملا ، ولكنه كان جسداً موسيقياً مثيراً . إن جسدها يصدو برغباتها ، وهى ليست بحاجة إلى أن تستعرض هذا الجسد أو تتمختر وهى تسير . ما عليها إلا أن تكبته . أن تكون هى . إنى مشتاق إلى ما يفوق الوصف ويسلب اللب والخيال . إنى مشتاق إلى الجسد النهم والمحير فى نفس الوقت . جسد مثل جسد مونا هو

جسد كلما امتلكه الإنسان أحس بأنه عبد له . إنه جسد يمكن أن يأتى معه بكل آلام وأوجاع مصر ، بل وأعاجيبها وعظمتها أيضاً » .

والشخصيات النسائية فى روايات ميللر والتى يتخذها محوراً لكتاباته وتصوير تطور حياته ، هى بلا شك شخصيات زوجاته . وقد سبق أن ذكرنا أن ميللر تزوج أربع مرات ، وأنه طلق أربع مرات أيضاً . تزوج بياتريس سيلفاس وكنز عام ١٩١٧ وهى التى تحمل اسم مودى فى رواية مدار الجدى ، ثم تزوج للمرة الثانية من جين آرت سميث عام ١٩٢٤ وهى التى يصورها ميللر فى ثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » باسم مونا ، ثم تزوج للمرة الثالثة من جانيتا م. لبسكا عام ١٩٤٤ ، وقد كان زواجاً قصيراً يصوره لنا ميللر فى رواية « بج سير » ، ثم تزوج للمرة الرابعة من ايف ماك كلير عام ١٩٥٢ وطلقها أيضاً .

أما شخصية مودى ، ففيها تتنافر الذات مع الجنس. إذا سلمت نفسها لرغباتها الجنسية فقدت ذاتها ، وهى الذات الوحيدة التى تعرفها . وحتى تؤكد ذاتها اليقظة كان عليها أن تنكر كل الحقوق التى لجسدها . كانت ترى أن الاستسلام لشهوات الجسد هو الذل والهوان ، ويقول ميللر عنها :

« لقد كانت تتوقع منى حباً لم أكن أستطيع أن أمنحها إياه

كانت تتوقع منى أن أدللها وأن أربت عليها كالطفلة الصغيرة وأن أهمس فى أذنيها بكلمات فارغة ، وأن ألاطفها ، وأن أهدهدها ، وأن أمزح معها . تريد منى أن أعانقها وأن أحتضنها بذراعاى بطريقة مضحكة . إنها ترفض أن تعترف بأننى ذكر وأنها أنثى . إنها تبغى أن أحدثها عن الحب ، وأن ألمس يديها فى خفة وصمت . أما أنا فقد كنت صريحاً لا أعرف اللف أو الدوران ، وكنت أصل إلى هدفى مباشرة ، وكنت متوحشاً فى حبى لها » .

أكثر من ذلك أن ميللر كان مضطراً لكى ما يصل بها إلى قمة الإثارة الجنسية أن يتدرج بها على السلم ، حتى يصبح الجنس عندها مرضياً عفوياً تلقائياً ، وكان عليه أن يتفحص الكدمات التى بساقيها ، وأن يتوهم وجود عيوب وتشوهات بجسدها حتى يراها عارية ، وأن يحاول إثارتها بتجاذب أطراف الحديث فى شتى الموضوعات ، حتى يصل الجنس عندها فى النهاية إلى درجة الفوران دون أن تعترف به ، فإذا ما بدأت ، فإنها تفقد السيطرة على نفسها تماما وتتغير شخصيتها وتبحث عن أى شىء وعن كل شىء .

وفى رواية « الجنس »، يصور لنا ميللر محاولته الهروب منها أثناء العملية الجنسية :

« مودى . . إذا كان المؤلف هو الله وليس زوجها ، لرأت نفسها تقف عارية فى أرض خضراء ممسكة بمظلة فوق رأسها لونها أحمر براق ، وتحت قدميها مجموعة من الحمام الجميل الرمادى اللون ، والحمام ينقر على العشب . ولو أنها حولت بصرها أثناء منحها البركة للحمام الإلهى الصغير ، والتفت وراءها لرأت إمرأة فاجر لا تستحى تعطى مؤخرتها لرجل عار مثل البقرة أو البغلة فى الحقل . إنها لا تحب أن تفكر فى هذه المرأة خاصة فى مثل هذا الوضع القبيح . إنها تحاول أن تبقى الحشيش الأخضر فوق جسدها وأن تظل المظلة مفتوحة فوق رأسها . إن الشمس ساطعة براقة ، وهى تشع الدفء فى أجزاءها الخلفية الباردة . وكالملاك القاسى تفتح ساقيها على بعد ، فيصفق الحمام بجناحيه بينهما ، وتتلمس أجنحته لمسات خفيفة حنونةذلك القوس الرخامى ويصفق بأجنحته فى جنون » .

وعموماً فإن شخصية مودى شخصية متناقضة تمام التناقض مع شخصية مونا .

وميللر هو الزوج الذى يواجه موقفاً غريباً ، موقف الزوج الذى يرتاب فى صديقة زوجته . فى رواية « الشبكة » يضعنا ميللر فى الصورة التى يواجهفيها «ستاسيا » صديقة زوجته التى أتت لتقيم معهما فى الشقة،

وتنتابه الشكوك حول العلاقة القائمة بين «ستاسيا» وبين زوجته. ولكننا ندرك أن هذه العلاقة لم تكن علاقة شاذة بين امرأتين ، إنما هي علاقة كذب وخداع . كانت مونا تكذب على زوجها حتى تكون في نظره الزوجة أو المرأة التي يحلم بها الرجل ، وكانت تخفي عنه مشاعرها وأفكارها وأحاسيسها . ولكن ميللر كان ينظر إليها كأنما ينظر إلى لغزين . ولذا ، فإنه عندما يرى صديقة زوجته ستاسيا يواجهها بصراحة بشعوره نحوها ، ويبوح لها بشكوكه نحو علاقتها بزوجته :

« ماذا تحبي أن تصدقين : أن مونا تحبني كثيراً لدرجة اضطرارها إلى الكذب على طول الليل والنهار ؟ أم أنها تحبك كثيراً لدرجة أنها لا تملك الشجاعة على البوح لك بهذا الحب ؟ أم أنك تحبينها كثيراً لدرجة أنك لا تستطيعين أن ترينها حزينة ؟ اسمعي . . لو أنك سألتيني إن كنت أغار منك ، ولشد ما أكره أن أعترف لك بذلك ، فإنني أقول لك : نعم . إنني لست خجلا لأن أعترف لك بذلك ، ولكن التفكير في أن شخصة مثلك قادرة على أن تثير غيرتي أمر يجعلني أحس بالخزي . أنا لا أحب متعاطي المورفين . وإنه لمن سوء الحظ ... دعيني أقول لك ذلك بصراحة . . . إن زوجتي تحس نحوك بانجذاب شديد . . . وهذا عار عليه لعنة السماء والأرض . . . إنها للأسف لم تجد رجلا غيري تحبه ، حتى ولو كانت قد

خانتنى مع رجل لا أحبه . . ولكن أن تكونى أنت . . ؟
لماذا هذه القذارة ؟ إنى أحس بالإنسحاق تماماً . . . »

ويهدى ميللر كتابه « مدار السرطان » إلى تانيا . لقد غاص لتوه « فى بطن الحوت» ، ولا بد أن يخرج الفن الآن .

وتانيا هى إحدى الشخصيات النسائية فى رواية « مدار السرطان» التى يعبر بواسطتها عن شهوته للجنس وللنساء ، وهى شهية نهمة كما قلنا . ثم تتحول شهوته من تانيا إلى شهوة الطعام ، فلن تخلو وجبة من قهوة بدون لبن ، أو قهوة بدون سكر ، أو خبز بدون زبدة ، أو لحم بدون صلصة ، أو لا هذا ولا ذلك.

ثلاث قصص من روائعه

عزيزى القارىء . . .

لقد اخترت أن أقدم لك بين صفحات هذا الكتاب ثلاث قصص أو بمعنى أدق ثلاث قطع مختارة من روائع الكاتب العظيم . والآن آن لك أن تسترخى على مقعدك ، وأن تأخذ أنفاساً قليلة ، فلابد أنك قد سرت معى بسرعة وأنا أقدم لك فى الصفحات السابقة لمحة عن حياته، وفكرة بسيطة عن أدبه وفنه. وربما تكون أنت من الساخطين، أو ربما تكون من الراضين . سيان . إنه أدب ، ولابد أن يصل إليك مهما كان العناء ومهما اختلف الذوق .

وقبل أن أبدأ معك الحديث عن المقتطفات الثلاث، أحب أن أؤكد لك ، ولك وحدك ، فأنت المستفيد الأول والأخير من قراءة آداب العالم ، أننى أضم صوتى إلى صوت أديبنا الكبير الأستاذ توفيق الحكيم لما نشره بجريدة الأهرام فى عدد الجمعة الصادر ٦ / ٨ / ١٩٧١ حيث يحدثنا عن مشاهدته لفيلمين فرنسيين عن الجنس :

« إن سمة الحضارة فى كل عصر هى البحث عن الحقيقة ، وخاصة فيما يتعلق بالإنسان ويتصل بأسباب وجوده المادى

والروحى . فكانت فى حضارة مصر القديمة والهند ترسم وتنحت فى المعابد بعضَ الأعضاء التناسلية رمزاً للحياة . كانوا يعرفون إذاً هم أيضاً أن « لا حياء فى الدين » بل إن الشعر العربى القديم وكتب الأدب لمثل الجاحظ وابن عبد ربه كانت تتحدث عن الجنس كما نتحدث عن الطعام. وكانت أكثر الكتب الأدبية لا تكاد تخلو من باب للأطعمة وباب للباه . وما كان حد وقتئذ يرى فى ذلك بأساً أو حرجاً . . ولكن يظهر أنه عندما تأخذ الحضارات فى الإنحطاط تكثر المحظورات ، وتسدل البراقع على كثير من الموضوعات ، إلى أن تمتد إلى روح المعرفة نفسها وعادة البحث فتصيبها بالشلل . وبهذا يقتل العلم وتنحسر الحضارة . . ليس معنى هذا هو فتح الباب فجأة للجنس الصريح أمام جماهير لم تتهيأ بعد لتقبله بمعنى مرتفع . فإن فتح النافذة فجأة أمام صدر مريض طال نومه قد يصيبه بصدمة أو علة . . ولكن المطلوب هو الإعداد الطويل المدى لدخول الهواء الطلق وذلك بتعويد الناس شيئاً فشيئاً على احترام البحث الحر ، وإفساح الصدر لمناقشة الحقائق الحيوية ، وعدم التهييج والتعصب وإقفال النافذة بعنف أمام من يريد إدخال نسمة صغيرة . . » .

ونحن نود أن نؤكد لأديبنا الكبير أننا لا نبغى أكثر من ذلك .

إننا لا نريد إلا أن يفتحوا لنا النوافذ . . إننا لا نريد تعصباً ، ولا نريد تعنتاً من أحد . . إننا نحلم باليوم الذى يعود فيه إلينا جاحظ جديد يكتب لنا عن الجنس فى صراحة . . إننا نعمل على بناء الدولة العصرية ، ولن تقوم الدولة العصرية إلا إذا تركنا الباب مفتوحاً للبحث عن الحقيقة وكل ما يتعلق بالإنسان ويتصل بأسباب وجوده . . فهذه كلها من سمات الحضارة فى كل عصر ، ومصر القديمة كانت تعرف أهمية الجنس قبلنا بآلاف السنين حتى أنهم كانوا ينقشونه على معابدهم وكانوا يقدمون له القرابين . ولابد لليل أن ينجلى ، ولابد للنور أن يعم على مصر الجديدة ، وأن تتحطم كل الرواسب الموجودة فينا .

إننا نتطلع فى شغف إلى من يكتب لنا رواية جنسية من صميم واقع الشعب المصرى .. رواية تحلل نفسية ذلك الفرد المصرى الذى يعانى من الكبت والحرمان ما لا يعانى منه أى فرد آخر فى مجاهل أفريقيا .

ولكن . . ويجب أن يعلم كل أدبائنا وكتابنا الكبار وعلى رأسهم نقادنا جميعاً . . إن ذلك لن يتحقق ما لم يسهموا هم فيه . نعم .. أنتم يا شيوخ كتابنا ومعشر مفكرينا . . ساعدونا على أن نفتح الباب فى صدر المريض، وساعدونا على أن نجدد له هواء الغرفة ، فبكم ، وبكم وحدكم يستطيع المريض أن يعافى من دائه .

ولنعود إلى الحديث عن قصصنا الثلاثه . .

القصة الأولى بعنوان ماكس ، وهى شخصية ضائعة فى المجتمع بهذا

الاسم ، شخصية ضائعة بمعنى الكلمة ، وأؤكد لك أنك بعد أن تقرأ هذه القصة ستعود إلى قراءتها مرات ومرات ، لا للاستشعار بلذتها ، فهى لذيذة وممتعة ، ولكن لكى ما تعيش فى جو البؤس والفقر الذى يعيش فيه ماكس ، وأنا واثق أنه بعد قراءتك لهذه القصة ستقسم أنك تعرف ماكس وأنك قابلته فى الحارة أو فى ميدان الأوبرا ، أو فى ميدان قصر النيل . وثق أنك أيضاً ستحبه وستعطف عليه ، وقد يقابلك فى الطريق ألف مصرى ممن تستطيع أن تطلق عليهم اسم « ماكس » . لقد بلغ البؤس والفقر به لدرجة أنه إذا أراد أن يفرغ شحنته الجنسية بحث عن رجل يضاجعه لأن ذلك قد لا يكلفه عشرة فرنكات يدفعها إلى بغى. ولقد اخترت لك هذه القصة من كتابه «ماكس والبلاعم البيض»

أما القصة الثانية وهى بعنوان « بيكود ريبيى » فهى تناقش مشكلة أذلية : لمن يكون البقاء ؟ هل البقاء للاصلح كما قال دارون ؟ وإذا صح ذلك فمن هو الأصلح ؟ هل هو الإنسان الذى يملك قوى الشر والعدوان ؟ أم هو الإنسان الآلى الذى لا يعرف الموت أو الإنقراض أو الدمار ويظل حياً إلى ماشاء الله ؟.. وهذه القصة اخترتها لك من رواية « الشبكة » .

وفى القصة الثالثة نعيش لحظات إنسانية مع بغى اسمها « برتا » والكاتب يعاملها معاملة إنسانية تقرب إلى المثالية . من منا يعتق امرأة وقد بلغت به الثورة مداها وهي بين يديه والطريق الخالى يقدم لهما خير فراش لخير لذة ممكنة ؟

كلمة أخيرة .

أرجو أن تستمتع بهذا اللون الجديد ، وأرجو أن نلتقي مرة أخرى مع مجموعة جديدة من روايات الكاتب العظيم .

مع تحياتي ؟

ميشيل سعد

القاهرة نوفمبر ١٩٧١

مـــاكس

عرفت ماكس فى مستهل أيامى الأولى حينما كنت أقيم فى فيلا سيرانت بباريس بين عامى ١٩٣٤ و١٩٣٥ تقريباً ، أو بين عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ على وجه الدقة . وربما أكون قد صورته فى قسوة مستخدماً الأسلوب الرمزى أحياناً فى التعبير عنه ، لكننى فى النهاية صورته كما عرفته فى الواقع دون أدنى تغيير .

ولقد بعث إلى كثير من القراء يسألوننى عما حدث لماكس فيما بعد ، والواقع أنه ليست لدى أدنى فكرة عن هذا الموضوع وغاية ما يمكن أن أفترضه هو أن الألمان لابد قد قتلوه عند غزوهم لفرنسا .

وأرجو أن لا يتبادر إلى الأذهان أن ماكس هو الشخصية الوحيدة التى تعرفت عليها إبان سنى تشردى . ولا يسع المرء إلا أن يعود بذاكرته إلى الوراء ، إلى الأربع سنوات أو الأربع سنوات ونصف التى قضيتها فى خدمة شركة البرقيات ، وأتذكر العديد من الشخصيات المنبوذة ، وهم بالآلاف ، إذ كنت محظوظاً بمعرفتهم .

وأقول « محظوظاً » لأن الفضل يرجع إليهم فى أننى تعلمت الكثير عن أسرار الحياة ، وعن معرفة الله ، وعن بطلان « فعل الخير » .

* * *

هناك فئة من الناس تجعلك تناديها بأسمائها الأولى بكل سهولة . . وما كس واحد من هؤلاء .

وهناك فئة من الناس تجذبك وتشدك إليها من أول وهلة ، لا بدافع من الحب ، وإنما بدافع من البغض والكراهية الشديدة حتى أنك تجد نفسك فى النهاية مشدوداً إليهم بفعل غريزة حب الاستطلاع .

وبعد ان تتعوف عليهم ، تضطر إلى الرجوع إليهم مرات ومرات لتقوم بدراستهم ، ومن ثم يتولد فى نفسك إحساس بالعطف والشفقة نحوهم،وهو إحساس زائف غير موجود أصلا فى الواقع ، وحتى إذا قدمت إليهم خدماتك، فإنك لا تفعل ذلك بدافع من العطف وإنما لأن آلامهم قد استعصت عليك ولم يعد فى إمكانك فهمها .

وما زلت أذكر ذلك المساء الذى استوقفنى فيه ما كس بالبوليفار ، ووجهه مكسواً بشعور من الامتعاض يتمثل فى كل حركة يقوم بها .

كنت ساعتها أسرع الخطى فى طريقى إلى أحد دور السينما عندما وجدت شيئاً يسد الطريق فجأة أمامى ، وكان هذا الشىء هو وجه ذلك اليهودى ما كس . وأعتقد أنه استوقفنى ساعتها ليطلب منى عود ثقاب أو شيئاً من هذا القبيل ، ولكن مهما كانت الأسباب فأنا واثق تماماً أنها كانت مجرد حجة واهية .

وإتضح لى على الفور أنه سيقوم بسرد قصة طويلة مؤلمة لم أكن فى الحقيقة على استعداد لسماعها ، ولذا فقد حاولت أن أسلك معه مسلكا

جافا ، وأن أكون فظاً غليظ القلب إلى حد الإهانة إذا لزم الأمر ، ولكنه للأسف لم يتزحزح ، وبدى لى أنه قد تسمر فى الأرض ، وأنه قد علق بوجهى كالصفعة الساخنة .

وحتى أضيع عليه الفرصة ، لم أتوقف لسماع القصة ، بل قمت من نفسى بتغيير مسار طريقى ، وكنت اهدف من وراء ذلك إلى إحساسه بالقرف والابتعاد عنى ، ولكنه مع ذلك لم يحرك ساكناً ، وظل عالقاً بوجهى كالصفعة الساخنة ، يرفض أن أهينه أو حتى أن أوبخه .

ومنذ تلك اللحظة فصاعداً ، ظل ماكس يتبعنى كظلى حيثما ذهبت وحيثما جئت ، وكنت أظن فى المرات القليلة الأولى التى كنت اصطدم فيها بوجهه فى الطريق أن ذلك إنما يحدث بمحض الصدفة ، ولكن بمرور الأيام بدأت أشك فى الأمر ، وكنت إذا خرجت فى المساء أسأل نفسى تلقائياً : إلى أين أنت ذاهب يا ميللر ، وهل تعتقد أنك لن تلتقى بماكس ؟

وحتى أتحاشى اللقاء به ، كنت إذا خرجت للتريض ذات مساء أصطحب معى أحد جيرانى الذين لا يعرفهم ماكس ، وكنت أختار واحداً مما لا يحلم ماكس بالتعرف عليهم فى يوم من الأيام وذلك إمعاناً فى تجنبه .

وكنت أعرف الأماكن التى لا يحيد ماكس عن ارتيادها .. فهو إما فى البوليفار ، وإما فى مونتبارناس ، وإما فى مونتمارتر .. وهى

الأماكن التى تشد السواح إليها .

وعندما يخيم الظلام على المدينة، يختفى ماكس من ذاكرتى تماماً، حتى إذا كنت عائداً فى طريقى المعتاد إلى البيت وقد نسيت ماكس بالفعل، أجد عيناى تلتقيان بعينيه فجأة، وبلا سابق إنذار .

وعلى بعد خطوات قليلة من مبنى الفنــدق الذى أقيم فيه، ينطلق ماكس من مخبأه بغتة ويأخذ فى هز رأسه لى، وأجد نفسى عاجزاً عن تفسير إمكانية وصوله إلى هذا المكان بهذه السرعة .

ويطالعنى ماكس بنفس ملامح الوجه التى تعودت أن ألقاه بها .

وكان يخالجنى شعور ذلك الوقت أن هذه الملامح ما هى إلا قناع رسمه ماكس بنفسه خصيصاً لى، وأنه مزجه بالحزن والألم والبؤس، وجعله يضىء فى وجهى كالشمعة التى بات فتيلها داخل روحــه، فكان ضوءها كضوء الفتيل المغمور فى زيت مقدس سرقه ماكس من مجمع اليهود .

والأهم من ذلك، أننى كنت أعرف الكلمات التى سينطق بها وكنت أضحك وهو ينطق بهذه الكلمات، وكان ماكس يأخذ ضحكى هذا على محمل من المودة والصداقة .

وكان دائما يلقانى مهللا بقوله :

ـــ كيف حالك ياميللر ؟

كان يقول ذلك كما لو أننا لم نلتق منذ زمن غير قريب . ويبتسم لى

ابتسامة عريضة سرعان ما تتحول إلى ضحكة مدوية وكأنه قد ألقى بحفنة من البارود فوق فتيل الشمعة .

وبعد أن يتوقف عن الضحك تخرج من بين شفتيه عبارة أخرى ألفت سماعها :

— هل تعرف ياميللر ما الذى حدث لى منذ أن التقينا آخر مرة ؟

والغريب أنى كنت متأكدا أن شيئا لم يحدث له على الإطلاق ، وكانت تجاربى معه تؤكد لى أننا عما قليل سنجلس فى مكان ما لنستمتع بلذة الإدعاء .

إذا مدد ماكس ساقيه ، لأعتبر ذلك حدثا فى حد ذاته ، وإذا مال الطقس إلى البرودة أو إلى الدفء ، لكان ذلك أيضا حدثا فى حد ذاته ، أما إذا أتى ماكس بعمل ما ، فان ذلك معناه أن حدثا خطيرا قد وقع !

إن كل ما يحدث لماكس يحمل فى طياته سوء الطالع ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك .

وإن كان لماكس أمل ما فى الحياة ، فهو أن تسير الأمور إلى أسوأ مما هى عليه، وكانت الأمور للأسف تسير من سىء إلى أسوأ بالفعل .

وهكذا تعودت أن أعرف ماكس ، وتعودت على حظه السىء الذى لازمه طول العمر ، وبدأت أعتبره كأحد الظواهر الطبيعية فى هذا الكون .

لقد أصبح ماكس جزءا من المنظر العام الذى تألفه العين . .

هو الأحجار ، وهو الأشجار ، وهو المراحيض ، وهو بيوتات الدعارة ، وهو أسواق اللحوم ، وأغصان الورد ، ومثل هذا القبيل .

وهناك آلاف من البشر ممن يجوبون الطرقات والحوارى طوال الليل والنهار مثل ماكس ، ولكن ماكس هو الصورة الحية لكل هؤلاء . .

إن ماكس هو البطالة ، وهو الجوع ، وهو البؤس ، وهو الألم وهو اليأس ، وهو الهزيمة والذل .

قد يستطيع المرء أن يتخلص من الآلاف الآخرين بفلس أو بفلسين ، ولكن من المستحيل أن يتخلص المرء من ماكس بأى طريقة كانت .

وأصبحت علاقتى شديدة الصلة بماكس ، حتى أننى لم أعد أقوى على التخلص منه ، ولقد أصبح أقرب إلى نفسى عن قرب حشرة من البق فى الفراش إلى جسدى ، وأصبحت أحس به تحت جلدى وكأنه شىء يسرى فى دمى .

وعندما يتكلم ماكس أستمع إليه بأذن نصف صاغية ، ويكفينى أن ألتقط أول عبارة تخرج من بين شفتيه حتى يسهل على بعد ذلك أن استرسل فى الحديث معه إلى ما لا نهاية .

ولم يكن ماكس يقول الا الصدق ، وكان صدقه مخيفا .

وكنت أظن أحيانا أن أفضل طريقه يمكن الإعلان بها عن

هذا الصديق هو أن أصحب ماكس إلى أحد الطرق الجانبية ، وأن أطرحه على ظهره هناك لينفث عن كل ما بداخل نفسه من صدق مخيف. ولو كنت قد فعلت ذلك لما كان قد حدث شيء بالطبع ، فالناس لهم طرقهم الخاصة فى تجميل المنعطفات ، وفى سد آذانهم عن سماع ما لا يرغبون فى سماعه ، وهم فى بساطة لا يرغبون فى سماع هذا الصدق ، لأنهم فى الواقع يعجزون عن سماعه .

إن الناس ، كل الناس ، يتحدثون مع أنفسهم بنفس الطريقة ، ولعل الفارق الوحيد بين ماكس وبين كل الناس هو أن ماكس يعبر عن هذا الصدق علانية وبذلك يحوله إلى صدق موضوعى ، وكأنه الأداة التى تكشف عن الحقيقة العارية .

ولقد أصبح ماكس فى غاية من البؤس ، بل أصبح البؤس نفسه ، وكأن البؤس قد تقمصه ولم يعد فى الوجود شخص اسمه ماكس ، وهذا هو السبب فى أن من يقف ليستمع إلى ماكس يحس رهبة شديدة .

ولذا ، فمن الأفضل أن نعتبر ماكس رمزاً على أن نعتبره حقيقة شىء ما .

وهو فى نظرى رمز للعالم .

إنه رمز لحالة هذا العالم ، وهى حالة غير قابلة للتغير .

إن ماكس لن يتغير ، ولن يفلح شىء فى تغييره مهما كانت قوته.

ولا شك أنني كنت غبيا إذ فكرت في أن أصحب ماكس إلى أحد الطرق الجانبية ، وأن أطرحه على ظهره لينفث عما بداخل نفسه من صدق مخيف . لقد كان الأمر أشبه بما لو أنني كنت كنت أسأل الناس : هل ترون ؟ ترى أى شيء ؟ ترى العالم ؟

العالم !

إنهم يرون العالم بكل تأكيد ، وهو الشيء الوحيد الذى يهربون منه باستمرار ويتجنبون رؤيته بشتي الطرق .

وفى كل مرة إلتقيت فيها بماكس ، كنت أحس أننى أحمل العالم فوق راحة يدى وأنه يقف أمام عيناى .

وكنت كلما جلست استمع إليه ، كنت أود لو أن أقول له :

— هل تعلم يا ماكس أن أفضل شيء تقوم به هو أن تحطم عقلك ؟ نعم يا ماكس .. حطم نفسك فهذا هو الحل الوحيد ، وإن كان لن يؤدى بك إلى التخلص من العالم كله بسهولة . إن ماكس حقيقة مطلقة . وحتى يتخلص من العالم ، عليه أن يقتل كل رجل ، وكل إمرأة ، وكل طفل ، وأن يحطم كل شجرة ، وكل حجر وكل بيت أيضا . نعم يا ماكس . اقتل كل نبات ، وكل كوكب سيار . أنت ميكروب يسرى فى دم كل إنسان .

وأرجو أن يكون مفهوما أنني حينما أتحدث من ماكس أتحدث عنه طول الوقت كشيء وقع فى الماضى ، فأنا أتحدث عن الرجل الذى كنت

أعرفه منذ سنة أو أكثر ، قبل أن يسافر إلى فيينا ، والذى كنت أصطدم به فى الطريق كل يوم ، والذى تركته ممداً على الأرض .

رسالة وحيدة وصلتنى منه وهو فى ڤيينا يرجونى فيها أن أشترى له الأدوية .

كتب إلى يقول أنه مريض وأنهم سيطردونه من الفندق الذى يقيم فيه .

وما زلت أذكر تلك الرسالة حينما كنت أقرأها وأضحك على إنجليزيتها المكسرة .

ولم أشك لحظة فى أن ماكس لم يذكر لى إلا الحقيقة فى رسالته ، ولكننى للأسف كنت قد عقدت العزم على عدم التدخل فى الموضوع ، وبت أتضرع إلى يسوع أن يزهق روح ذلك البنى آدم حتى يكف عن مضايقتى وأستريح من همه .

وعندما مر أسبوع ولم أتلق منه أية رسائل أخرى ، غمرنى شعور بالارتياح ، وتمنيت لو يكون ماكس قد أدرك أنه لا جدوى من ورائى أبداً .

أما إذا كان ماكس قد مات ، فإن الأمر سوى عندى ، لأننى فى الواقع أريد أن أعيش لوحدى .

وعندما خيل إلى أننى قد تخلصت من ماكس تماماً ، بدأت تراودنى فكرة الكتابة عنه . وكنت أحياناً أحس بحاجتى إلى رؤيته لأكد

من بعض الإنطباعات التي كنت أنوى استخدامها فى الكتابة عنه، وفكرت فى أن أبعث إليه بنفقات السفر ليأتى وأراه،ولن أستطيع الآن أن أعبر عن مدى أسفى وحزنى لإهمالى هذه الرسالة التى رجانى فيها أن أشترى له الأدوية ، لأننى أدركت أنه عن طريقها كان باستطاعتى أن أبعث ماكس حياً بكل سهولة .

والغريب ، أننى وأنا أستعيد ذكراه الآن ، أحس أن كل ما قاله لى محفوراً فى عقلى بشدة ، ولكننى للأسف لم أكن على استعداد إطلاقا ذاك الوقت للكتابة عنه .

ثم اضطرتنى الظروف التغيب عن باريس عدة شهور .

ولم يعد يعد ماكس يخطر على بالى إلا نادراً . . . واعتبرت الأمر وكأنه قصة عاطفية جميلة وقعت لى منذ زمن بعيد .

لم أسأل نفسى إن كان ماكس ما زال على قيد الحياة .

أبداً . .

لم أفكر فى ماكس اللحم والدم ، ولم أفكر فى ماكس الذى يتألم ويعانى .

لم أفكر فى ماكس من هذه الناحية . . وإنما كنت أفكر فى ماكس الرمز .. ماكس الذى لا ينقرض أو يموت .

وبعد فترة قصيرة من عودتى إلى باريس . خرجت ذات مساء أبحث عن شخص ما .

ولـكن . . من تظن أنى قد قابلت ؟ .

لقد قابلت ماكس بلا شك ، ومن سيكون غيره ؟

ويا له من رجل ؟ ! .

— ميللر . . كيف حالك ؟ أين كنت ؟

هذا هو ماكس بعينه !

لعل الشيء الوحيد الذى تغير فيه الآن هو أنه لم يـكن حليقاً .

ماكس يبعث من الموت حياً فى حلة أنيقة من الطراز الإنجليزى ، وفوق رأسه قبعة سميـكة من القطيفة وطرفها منثنى إلى أعلى بطريقة مقززة ، ويبدو شكله كالمانيـكان . يستقبلنى بنفس الإبتسامة ، وإن كانت ابتسامة شاحبة جداً هذه المرة ، وتستغرق وقتاً طويلا حتى ترتسم على شفتيه ، وتحس أنها ابتسامة باهتة كشعاع نجم بعيد يرسل على الـلون بآخر وميض له قبل أن يخبو إلى الأبد ! .

وذقنه التى نبت فيها الشعر حديثاً . .

الذقن هذه المرة هى الشيء الوحيد الذى يقوى فيه مظاهر البؤس عن ذى قبل ، وهى التى تقلل من نظرة الامتعاض التى كانت تعلو شفتيه وتطفى على وجهه هالة قذرة من التقديس .

وبت تحس أن الامتعاض قد ذاب فى المتاعب وأن المتاعب قد ذابت بدورها فى الآلام المبرحة .

والغريب حقاً، أننى لم أعد أحس بنفس الإحساس الذى كنت



ماكس يبعث من الموت حيا فى حلة أنيقه من الطراز الإنجليزى ، وفوق رأسه قبعة سميكة من القطيفة وطرفها منثنى إلى أعلى بطريقة مقززة ، ويبدو شكله كالماينكان .

أحس به نحوه من قبل ، فلقد أصبح فى بساطة بشع الشكل ، وتجسمت فيه كل أنواع المعاناة ، حتى غدى كاريكاتيراً للمعاناة .

ولا شك أن ماكس يعى ذلك بدليل أنه لم يعد يتكلم بنفس الحماس أو الحيوية وإنما أصبح يشك فى كل كلمة يقولها ، وغدى الأمر روتينياً محضاً بالنسبة له .

ولعله الآن ينتظر منى أن أضحك مثلما كنت أضحك فى الماضى ، والمدهش أن ماكس هو الذى يضحك الآن وكأن ماكس الذى يتحدث عنه شخص آخر لا يمت إليه بصلة .

والحلة التى يرتديها . .

حلة إنجليزية أنيقة ، واسعة على جسده بحوالى ميل ، أخذها من رجل انجليزى فى ڤيننا ، وهو يحس بأن هذه الحلة قد جعلته مسخة أمام الناس ، وأنها حطت من كرامته ، ولم يعد أحد يصدقه وهو يرتديها .

وحذاؤه . . .

حذاؤه قذر ، ممزق ، مصنوع من قماش الخيام ولا يتمشى مع القبعة القطيفة .

وهو يتأمل قدميه داخل الحذاء القذر ، ويكاد يوهمنى أنه يحس براحة كبيرة وهو منتعلا هذا الحذاء ، ولكن تتغلب عليه عادته ، فيقول لى أن حذاءه الآخر موجود طرف الاسكافى وأنه فقط لا يملك المال لإحضاره .

وعلى أى حال ، فالحلة الإنجليزية هى التى تسيطر على فكره الآن لأنه يعتبرها أقوى رمز على سوء حظه الجديد .

وبينما يمد إلى كم ذراعه لأتفرج على قماش الحلة ، يبدأ يقص على ما حدث له فى الفترة الماضية وكيف أنه حاول السفر إلى ڤيينا .

وفى ڤيينا أراد أن يبدأ حياته من جديد .

واكتشف للأسف أن الحياة فى ڤيينا ليست بأفضل مما هى عليه فى باريس .

المطاعم التى تقدم الحساء والخبز فى ڤيينا أنظف بكثير من مطاعم باريس . . هـــذه حقيقة يعترف بها ماكس فى صراحة مملوءة بالامتعاض ، فما فائدة أن تكون المطاعم نظيفة وليس فى جيبه فلس واحد . . ؟ .

ولكن الشىء المؤكد هو أن ڤيينا بلدة جميلة جداً ، ونظيفة جداً ، وقد خيل إليه كثيراً أنه لا يجب أن يطأ بقدميه على أرضها .

ولكن . . أعوذ بالله ! .

كل فرد فى ڤيينا أصبح الآن يمد يده .

إن ڤيينا مدينة جميلة . . رائعة .. نظيفة . إن جمالها ونظافتها من الأشياء المثيرة لدرجة الاستفزاز .

وهممت بأن أقاطع ماكس لأسأله إن كانت القصة ستطول ، فلقد كان أصدقائى ينتظروننى على الجانب الآخر من الطريق ، وكنت

مضطراً إلى أن أذهب للبحث عن الشخص الذى أريده ، فلم يسعنى إلا أن أقول مغمغماً وأنا أتفحص الجزء الآخر من الطريق بطرف عينى :

— نعم . . نعم . . فيينا .

وإذ به يصيح بى قائلا :

— لا . . ليست فيينا . .

— ليست فيينا !

— نعم . ليست فيينا ، وإنما بازل . بازل يا ميللر ، بازل وليست فيينا . لقد تركت فيينا منذ شهر تقريباً .

وأسأله :

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— ماذا حدث ؟ ألم أقل لك يا ميللر أنهم أخذوا كل الأوراق ؟ ألم أقل لك أنهم جعلونى من السواح الذين لا يحق لهم العمل فى أى مكان ؟ ألم أقل لك ؟ ألم أقل لك ؟ .

وكنت عند سماع ذلك أنفجر بالضحك ، وكان ماكس يضحك على طريقته الخاصة . . تلك الطريقة التى تتفجع بالألم والحزن ، ثم يستطرد قائلا :

— هل تتصور ذلك يا ميللر ؟

ويطلق ضحكة أخرى كريهة ، ويقول :

— ماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ لقد أضطررت أن أقبل هذا

الوضع ، وإن كان الأمر لم ينته عند ذلك .

فى مدينة بازل شدوه من داخل القطار . رفض البوليس أن يسمح له بعبور الحدود ، وفى هذا يقول ماكس :

-- سألتهم يا ميللر لماذا يمنعوننى . . قلت لهم : ماذا حدث ؟ خبرونى من فضلكم . . ألم أتبع الأصول والقواعد السليمة ؟

آه . . لقد فات على أن أذكر أن ماكس ظل طول حياته يتبع القواعد والأصول السليمة ويحارب من أجلها .

ورغم ذلك فقدشدوه من داخل القطار،وألقوا به وحيداً فى الطريق، فكيف كان يمكنه أن يتصرف ؟ .

هام على وجهه فى الطرقات . ظل يبحث عن وجه صديق ، وأى صديق . . صديق أمريكى أو حتى إنجليزى .

ووقع بصره على لافتة كتب عليها : « دار إيواء اليهود » .

وهب حاملاً حقيبته الصغيرة ، ودخل .

طلب لنفسه فنجاناً من القهوة ، وأخذ يقص عليهم قصته التى تتفجر بالألم .

وقالوا له :

— لا تهتم . . إن الأمر بسيط للغاية .

وقاطعت ماكس محاولا إنهاء الحديث معه بقولى :

— على أى حال ، ها أنت قد عدت إلى باريس مرة ثانية .

فصاح قائلا :

— وأى نفع فى ذلك ؟ إننى أعود إلى باريس وقد أصبحت واحداً من السواح الذين يتدفقون عليها ليل نهار. هل تظن أننى سأتمكن من العمل ؟ إننى أريد أن آكل يا ميللر ، والمصيبة أننى لن أستطيع أن أشحذ مليما واحداً الآن وأنا مرتدياً هذه الحلة الأنيقة .

وإذ درد ريقه وهو يقول فى مرارة :

— لقد انتهيت يا ميللر . . انتهيت وما كان يجب إطلاقا أن أبدو بهذه الأناقة .

وتطلعت إليه من قمة رأسه إلى إخمص قدميه .

كانت أناقته فى الواقع فى غاية من التنافر .

كان كالمريض الذى شفى لتوه من المرض ، والذى امتلأ قلبه بالسعادة لمغادرته الفراش ، ومع ذلك لم تكن له القدرة على حلق شعر ذقنه .

وكانت القبعة التى تعتلى رأسه من نوع غال ، وتزن حوالى طن ، وتبعث على الضحك والسخرية ، تزينها بعض الخيوط ، ويبدو فيها وكأنه من أهل المدن القديمة . أما جذور الشعر التى نبتت فى ذقنه مؤخراً فلو أنها كانت قد طالت قليلاً ، لكان ماكس قد أصبح أحد الأشباح الذين يطوفون بأحياء اليهود فى براغ وبود أبست، وتسيطر عليهم الكآبة والحزن ويبدو عليهم مظهر النبلاء . لو طال الشعر قليلا ، لبدى ماكس كالقديسين تماماً ، وإن كانت

القبعة طرفها منثنى إلى أعلى بطريقة مقززة للغاية .

والمشهد أشبه باحتفال اليهود بعيد البوريم..النبيذالمعتق أطاح برؤوس القديسين..وجوه اليهود تعلوها مسحة من الكآبة والحزن..ذقونهم شعرها منمق وناعم..فوق الرؤوس تعتلى قبعات يهودية صناعة إنجليزية. الشموع تحترق . . الحاخام يرنم . . التراتيل المقدسة الحزينة تخرج من بين شفاه الجموع الواقفة . . المكان كله مفروشاً بالقبعات . قبعات . . قبعات . . قبعات . كلها قبعات منثنية من الطرف إلى أعلى . قبعات تثير فى النفس الإشمئزاز على الأحزان والآلام ! !

وقلت لماكس :

— على أى حال لقد عدت إلى باريس وقضى الأمر .

ومددت له يدى لأصافحه ، وأخذت أهز يدى بيده ، وانتظرت أن يترك يدى ،ولكنه ظل ممسكا بها، ليحكى لى من جديد ، وليعود بى مرة ثانية إلى بازل ، وإلى « دار ايواء اليهود» حيث كانوا يقولون لههناك أنه بوسعه أن يهرب إذا شاء . . صحيح أن هناك حراس على الحدود ، ولكنهم لن يروا شيئاً ، وهذا ما حدث بالفعل .

وخطى ماكس خطوتين إلى الأمام وأردف يقول :

-- وهكذا يا ميللر استطعت أن أعود إلى باريس مرة ثانية . . أعود إلى باريس بلد القمل والقاذورات والنتانة . الناس فى فيينا يقدسون النظافة على الأقل ، وكنت ترى البروفيسير بجانب الطالب فى صف واحد

فى انتظار الحصول على الطعام . أما هنا فى باريس ، فإنك لا تجد إلا التسولين ، ويالهم من متسولين تفوح منهم النتانة ، وتبدو القذارة واضحة عليهم ، ويتساقط من أجسادهم القمل ، ولا تحصل منهم إلا على حشرات البق الخبيثة .

وعدت مرة أخرى أهز يدى بيده وأقول :

— نعم . . نعم . . هذه هى الحقيقة بعينها يا ماكس .

ودون أن يترك يدى ، يستطرد ماكس قائلاً :

— إنى أكاد أجن يا ميللر . تصور أننى لم أعد أستطيع النوم ، وتجدنى فى السادسة وقد استيقظت تماماً ، وأظل راقداً فى الفراش أفكر فيما عسى أن أقوم به . ولكننى لا أقوى على البقاء فى الغرفة حتى يعم الضوء ، فأنهض من فراشى واغادر المكان إلى الشارع مهما كان الأمر ، ومهما كنت جوعاناً . يجب أن أرى الناس يا ميللر ، ويجب أن أسير فى الشوارع فلم أعد أطيق الحياة بمفردى .

وبعد قليل يستطرد :

— بحق السماء يا ميللر . . هلا قلت لى ما الذى يحدث لى بالضبط ؟ لقد أردت أن أبعث إليك ببطاقة من ڤيينا حتى أظهر لك أن ماكس مازال يذكرك ، ولكننى للأسف كنت قد نسيت العنوان . أعتقد أنك كنت فى نيويورك يا ميللر . . هيه . . كيف كان الحال هناك يا ميللر ؟ أقصد كيف كان الحال فى نيويورك ؟ هل تعتقد أن نيويورك أفضل

من باريس ؟ أتعتقد ذلك ؟ لا ؟ أهى الأزمة أيضاً ؟ إن الأزمة في كل مكان يا ميللر .. فى نيويورك ، وفى باريس ، وفى كل مكان . لن تستطيع الهرب يا ميللر ، ولن يسلمونك العمل ، ولن يجعلونك تعيش — فماذا فى وسعك أن تفعل إذن بهؤلاء الأوغاد .. ؟ إن الخوف يسيطر على ...

ولكننى قاطعته قائلاً :

— اسمع يا ماكس .. يؤسفنى أننى لن أستطيع البقاء معك طويلا ، ولكننى أريد أن أقول لك شيئاً . . لا تقلق على شىء يا ماكس ، فأنت لم تقتل نفسك بعد ، أو حتى لم تفكر فى هذا الموضوع بعد . .

ويبتسم ماكس وهو يقول :

— يا لك من رجل طيب القلب ! إنك إنسان سعيد ، وستظل سعيداً طول العمر . أتمنى يا ميللر أن أكون برفقتك طول حياتى ، وأن أذهب معك إلى أى مكان فى الدنيا . صدقنى يا ميللر .. أنا على استعداد تام لأن أصحبك إلى أى مكان فى الدنيا .

* * *

جرى هذا الحديث بينى وبين ماكس منذ ثلاثة ليالى تقريباً . .

ظهر أمس . . توجهت إلى أحد المقاهى الصغيرة الواقعة على قارعة الطريق ، وجلست بالشرفة أقرأ مخطوطاً لكتاب جديد لى ، ولقد إخترت هذا المكان بالذات لأنى كنت أود أن أتفرغ كلية لقراءة المخطوط ، ولأننى لم أكن أريد أن يزعجنى أحد أثناء قراءته .

وعند ما كنت قد قرأت نصف المخطوط ، وأخذت رشفة أو رشفتين من مشروب فاتح للشهية سمعت صوتاً مألوفاً لدى يصيح بى قائلاً :

— من ؟ ميللر ؟ كيف حالك يا ميللر ؟

وكالعادة كان ماكس ينحنى فوق رأسى .

نفس الإبتسامة الغريبة . نفس القبعة . . نفس الحلة الأنيقة . . نفس الحذاء القذر الممزق المصنوع من قماش الخيام ، ولكنه كان حليق الذقن هذه المرة ، ولعل هذا هو الشىء الوحيد الذى تغير فيه .

دعوته للجلوس معى . طلبت له ساندوتشا وشوب بيرة . أخذ يفرجنى على بنطلون حلته الأنيق . لاحظت أنه استخدم حبلاً لفه حول وسطه ليشد به البنطلون إلى أعلى .

وأخذ ماكس ينقل بصره فى ازدراء بين بنطلونه وبين حذاءه القذر ، وبدأ يقص على ما حدث له طيلة الفترة الماضية .

ليلة أمس لم يكن لديه شىء يأكله .. لم يجد حتى كسرة خبز جافة، ولكن الحظ ، والحظ وحده ، هو الذى أنقذه من هذه المحنة ، فقد اندس وسط مجموعة من السواح ، ودعوه لتناول الشراب معهم .

وقال ماكس :

— إضطررت إلى أكون مهذبا معهم ياميللر. لم أستطع أن أقول لهم من البداية أننى جائع بالطبع ولكننى ظللت أتحين الفرصة لذلك ، أو أن يقوموا لتناول الطعام ، ولكننى اكتشفت أن الأوغاد قد تناولوا طعامهم

قبل حضورى ، ولذا ظللت طول الوقت لا أتناول شيئاً غير الشراب ، وكانت معدتى خالية تماماً ، والغريب أنهم لم يطلبوا أى طعام أثناء الشراب ولو حتى لمرة واحدة .

كنت ذلك الصباح فى حالة نفسية جيدة مما دفعنى إلى ملاطفة ماكس ولعل ذلك راجع إلى المخطوط الذى كنت أنوى أن أفرغ من قراءته ، ولقد كان مخطوطاً جيداً حتى أننى كنت أشك فى أن أكون أنا الذى كتبته .

وقلت لماكس :

— اسمع يا ماكس .. لدى حلة قديمة تصلح لك . هل أنت مستعد لأن تذهب معى فوراً إلى البيت ؟

ويتهلل وجه ماكس بالبشر ، ويقول لى ساعتها أنه سيحتفظ بالحلة الإنجليزيه الأنيقة لأيام الآحاد ، ويسألنى إن كانت توجد فى البيت مكواة حتى يقوم بكى حلتى ، وكى كل ما أملك من الثياب ، وأخبره بعدم وجود مكواة ، ولكن ربما تكون هناك حلة أخرى تصلح له .

(لقد تذكرت الآن فقط أن أحد أصدقائى كان قد وعدنى ذات يوم بأن يعطينى حلة .)

وينتشى ماكس ..

إذن فستكون له ثلاثة حلل بدلا من حلة واحدة . إنه يتصور أن هذه الحلل ستكون من نسيج بديع ، وأنه سيقوم بكيها بنفسه ، وهو

يؤكد لى أن الإنسان يستطيع أن يحكم على أى شخص بأنه أمريكى من أول وهلة عن طريق الخطوط الطويلة التى تزين نسيج بنطلونه ، أو من مشيته ، وحبذا لو أن كان هذا الشخص يضع يديه فى جيوبه. لقدعرفنى من هذه الطريقة حينما التقيت به لأول مرة . الرجل الفرنسى مثلا لا يضع يديه فى جيوبه على الاطلاق .

ويسألنى ماكس فى سرعة :

— أمتأكد أنت يا ميللر أنك ستحصل على حلة أخرى ؟

— لست متأكداً تماما يا ماكس ، ولكن ربما..

وبعد برهة قلت له :

— مارأيك فى ساندوتش آخر يا ماكس ؟ خذ ساندوتشا ونصف شوب بيرة ..

— يا لأفكارك ياميللر ! إنك رائع على الرغم من أنك لا تعطينى الكثير ، غير أن طريقة تفكيرك هى التي تهمنى ، فهذه الطريقة تهبنى الشجاعة .

الشجاعة !!

كلمة ينطق بها بالفرنسية ، فالكلمات الفرنسية تفلت من بين شفتى ماكس من حين لآخر ، وهى كلمات متنافرة ومتناقضة كالقبعة القطيفة ، وهو حينما ينطق بكلمة « البؤس » مثلا ، ينطق بها كما لا ينطق بها الفرنسيون أنفسهم . وعلى أى حال فلتكن إذن الشجاعة هذه المرة.

ويقسم ماكس أنه على استعداد تام لأن يذهب معى إلى أى مكان فى الدنيا ، وكله ثقة بأننا سنعود على خير مايرام . نعم .. انا وهو ..

(وأنا الذى أفكر طول الوقت فى التخلص منه !)

ولكن كل شىء اليوم أو — كى ..

أنا اليوم على استعداد لأن أفعل من أجلك كل ما تريد يا ماكس .

والوغد لا يعلم أن الحلة التى سأعطيها له اليوم واسعة جداً على ، ولا تناسبنى ، وهو يظن أننى رجل كريم ، ولا بأس من ذلك لأننى أريده اليوم أن يقدم لى القرابين ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى المخطوط الذى كنت أقرأه منذ لحظات ، لأن ما كتبته كان شيئاً رائعاً بالفعل حتى أننى كنت أطير هياماً بروحى .

وناديت على الجرسون :

— علبة سجاير .. للسيد !

نعم .. علبة سجاير للسيد ماكس، فهو سيد هذه اللحظة على الأقل.

ويرمقنى ماكس بابتسامة واهنة ..

حسن .. تشجع يا ماكس .. سآخذ بيدك اليوم وأرفعك إلى ا

ثم أهوى بك إلى ظلمات البحر .

يا يسوع .. من أجلك وحدك سأمضى يوماً مع هذا الوغد، ثم أركله بقسوة على مؤخرته .

اليوم سأستمع إليك يا مضاجع الذكور .. سأستمع إلى كل كلمة ،

وإلى كل همسة ، وسأصبر حتى المنتهى ، ثم لتذهب إلى الجحيم .

وأسأل ماكس :

— هل تحب أن أطلب لك نصف شوب آخر من البيرة يا ماكس؟ خذ نصفاً آخرا ، وخذ ساندوتشاً ، ولنواصل جلستنا معاً .

— لكن .. ميللر .. هل ستدفع ثمن كل هذا ؟

يا للوغد !!

إنه يعلم تماماً أنني قادر على الدفع ، وإلا ففيما تشجيعى له على طلب المزيد ؟ إنه يتبع معى أسلوبه الخاص ، وينسى أننى لست واحداً من فتيانه الذين يملأون البوليفار ، أو واحداً من زبائنه العاديين ، ومن أدرانى ، لعله قد وضعنى فى القائمة !

ويبدأ الدمع ينسكب من عينيه ..

والحقيقة أنه ما أن يبدأ ماكس فى البكاء حتى يبدأ الشك يتطرق إلى قلبى . .

يالها من دموع !!

دموع لامعة .. دموع تنبعث من مقلة العين وتنساب فوق خديه .. دموع صغيرة كحبات اللؤلؤ .. كل دمعة فص من اللوءلوء .

كم أتمنى يا يسوع أن أدخل مرة واحدة داخل ماكينة الدموع وأرقب بعينى طريقة التصنيع !

ولكن اليوم يوم رائع جميل ..

من أمامنا تمر بائعات الهوى وكلهن أنوثة صارخة، ولا أدرى إن كان ماكس يحس بهن، فأسأله :

— ماذا تفعل يا ماكس ... ؟

— فيم ؟

— إذا أردت أن تضاجع ؟

— إذا أردت أن أفعل ماذا ؟

— لقد سمعتنى يا ماكس. قلت لك إذا أردت أن تضاجع. ألا تعرف ما هى المضاجعة ؟

ويبتسم ماكس .. يبتسم نفس الابتسامة الواهنة الضعيفة ، وينظر إلى بطرف عينيه وكأنه دهش لمثل هذا السؤال .

وكنت أريد أن أعرف إن كان ماكس ، بكل ما أوتى من آلام ومتاعب ، يحمل فى جنباته ميكروب أفكار الخطيئة . ولم لا ؟ هذه الأفكار ، كما يقول ، تراوده من وقت لآخر . أليست هذه الأفكار من سمات البشر ؟ ولكن ماذا فى وسعه أن يفعل بعشرة فرنكات ؟ إن الأمر حقاً يبعث على الامتعاض ، وهو ليفضل أن ...

وأقاطعه قائلا :

— نعم .. نعم يا ماكس . إنى أعرف تماماً ما تريد أن تقول .

وما أن نغادر المقهى حتى أصحبه إلى الناشر ،وأطلب منه أن ينتظرنى قليلا فى الممر ريثما أعود إليه . وعندما اعود محملا بعديد من الكتب تحت

إبطى ، يجرى نحوى ويلتقط منى الكتب ، والسعادة تغمر قلبه لإحساسه بأنه قد أدى بذلك عملا حقيقياً .

ويهمس فى أذنى قائلا :

— ميللر .. أعتقد أنك ستصبح مشهوراً يوماً ما . إن الأمر لا لايحتاج إلى تأليف كتاباً عظيما حتى تحقق الشهرة . ان الحظ قد يجلب للانسان الشهرة دون تعب .

— تماماً .. تماماً يا ماكس . إنه الحظ ، ولا شىء غير الحظ .

وبدأنا نسير فى طريق الحرية تحت البواكى.

على مقربة منا ، كانت توجد مكتبة تعرض كتابا لى ، وهى مكتبة ضيقة صغيرة، وفترينتها مكدسة بالكتب المغلفة بورق السلوفان . فقررت أن أصحب ماكس إلى المكتبة حتى يرى بعينيه هذا الكتاب ، وحتى ألمس بنفسى مدى تأثير ذلك عليه .

وعندما وصلنا إلى المكتبة ، انحنينا ندقق النظر فى عناوين الكتب المعروضة ..

هذا كتاب « حكمة بوذا الكامية »، وهذا كتاب « تحت الرداء »، وهناك كتاب « حياتى فى الحب والهوى »، ثم كتاب «هناك بحث..»

ولكن أين كتابى ؟ .

لم أجد كتابى فى مكانه . لقد تعودت أن أراه أعلى الرف بجوار كتب غريبة عن الجلد بالسياط . فتركت ماكس منهمكا فى دراسة

رسومات المعاطف ، فلم يكن يبدو عليه الإهتمام بكتابى ، وقلت له :
— إنتظر لحظة يا ماكس . . سأدخل ثم أعود إليك .

وفتحت باب المكتبة فى عصبية ، وقابلتنى سيدة فرنسية جذابة ، حيتنى بإيماءة من رأسها ، وبعد أن جلت ببصرى سريعاً على الأرفف ، وألقيت نظرات خاطفة يائسة على الكتب ، سألتها :

— هل عندك كتاب « مدار السرطان » ؟ .

وأخبرتنى السيدة أنه موجود ، وأشارت بيدها ناحيته ، فشعرت بالإرتياح ، وأخذت أسألها إن كانت تباع منه نسخاً كثيرة ، وإن كانت هى شخصياً قد قرأته ، فقالت لى أنها لاتقرأ الإنجليزية للأسف ، فأخذت أتحرك هنا وهناك محاولا أن ألتمس المزيد عن كتابى . وسألتها عن السبب فى تغليف الكتب بورق السلوفان ، فأخذت تذكر لى الأسباب وتعددها ، ولكن ذلك لم يكفينى ، فقلت لها أن الكتاب لا يجب عرضه داخل هذه المكتبات ، فهو ليس من النوع الذى يعرض فيها بالطبع . وبدت السيدة ترتاب فى أمرى ، وبدى لى أنها لم تعد تصدق أننى مؤلف هذا الكتاب كما سبق وأن أفهمتها كذلك . وإتضح لى أنه من الصعب أن يكون بينى وبينها أى نوع من التفاهم ، فهى لا تبدو مهتمة بكتابى أو بأى كتاب آخر معروضاً بالمكتبة ، ولعل ذلك راجعا إلى طبيعة الفرنسيين أنفسهم ، ولابد أننى قد كبرت فى السن . كما تبين لى أننى لم أكن حليقاً ، وأن بنطلونى لم يكن

مكوياً ، وأنه لا يتمشى مع السترة التى كنت أرتديها ، ولذا فضلت أن أعود إلى ماكس ، وفى الوقت الذى استدرت فيه للخروج ، فتح باب المكتبة ، ودلف منه شاب إنجليزى أصفر الوجه ، تلوح منه مظاهر الفن ، وبدى لى ملبوخاً تماماً ، فتسللت خارج المكتبة بينما كان يهم بإغلاق الباب . وقلت لماكس وأنا ألتقى به :

— اسمع يا ماكس . . هناك نسخ كثيرة من الكتاب بالداخل . . صف كامل مملوء بها ، كما أن الكتاب يباع بكميات كثيرة وفى منتهى السرعة كالخبز . لقد أكدت لى السيدة التى بالداخل أن كل واحد يطلب نسخة منه .

— أما قلت لك يا ميللر أنك ستكون مشهوراً ؟ .

والظاهر أن ماكس مقتنع تماماً بذلك ، وهو على العموم رجل سهل الإقتناع ، وإن كانت هذه صفة لا أحبذها فيه كثيراً .

ومع إحساسى بالرغبة فى الحديث عن كتابى ولو كان ذلك مع ماكس بعينه ، إقترحت عليه أن نذهب لتناول القهوة فى البار .

ويسرح ماكس بفكره فى شىء ما ، وأحس أننى أكاد أجن . إننى لا أريده أن يشغل فكره بأى موضوع آخر غير موضوع كتابى ، وليكن ذلك لهذه اللحظة على الأقل .

وأسمع ماكس يقول لى فجأة :

— هل تدرى فيما كنت أفكر يا ميللر ؟ كنت أفكر فى أن

تـكتب كتاباً عن حياتى .

وشعرت أن ماكس يريد أن ينشط مرة ثانية إلى الحديث عن متاعبه التى تصادفه فى الحياة ، فأعمل على تغيير الموضوع فى الحال :

— فى إمكانى أن أؤلف كتاباً عنك ، ولـكننى لا أريد . إننى أريد أن أكتب عن نفسى أنا . . هل تفهم ؟ .

بالطبع ماكس متفهم جداً لهذه الأمور . إنه يعلم أن الـكاتب مثلى لديه الـكثير مما يستطيع أن يـكتب عنه ، ولعل هذا ما حدى به لأن يلقبنى بالتلميذ . . أىَ تلميذ الحياة . . على أن أذهب هنا وهناك . . أن أضيع وقتى . . أن أتظاهر بأننى أستمتع بالحياة ، بينما أنا فى الواقع أقوم بدراستها ، وبدراسة الناس . لقد استوعب هذه الفـكرة ، ويعلم أن مسألة الـكتابة مسألة غير مضمونة لأنها تعنى العمل الدائب أربعة وعشرين ساعة فى اليوم .

ويقلب ماكس الأمور حسب تفـكيره ، ويقارن حياته بحيـــاة الآخرين ، ويبحث عن الفرق بين بؤس إنسان وإنسان آخر ، ثم يعود إلى التفـكير فى متاعبه الشخصية ، وكيف انه لم يعد يستطيع النوم ، وتلك الآلة بداخل دماغه لا تتوقف عن العمل أبداً .

ويقول لى :

— أعتقد يا ميللر أن الـكاتب لا يسلم هو الآخر من أحلام الـكابوس .

أحلام الكابوس ! .

أمسكت على الفور بقلم وسجلت هذه العبارة على مظروف أمامى .

وسألنى ماكس :

— لماذا تدون ذلك يا ميللر ؟ هل تعتقد أن لما قلته قيمة ؟ .

— إنه رائع يا ماكس . . إن ما قلته يساوى كنزاً . .

ويحدقنى ماكس بنظرة بلهاء .

أحقاً أقول الصدق أم أسخر منه ؟

— إن الملاحظة التى قلتها يا ماكس تساوى ثروة كبيرة بالنسبة لى .

ويعود ماكس إلى تشغيل ذهنه من جديد .

كثيراً ما كان يعتقد أن الكاتب أو الأديب لا يعوزه إلا تجميع الحقائق ، فأقول له :

— هذا غير صحيح يا ماكس ، وإن كان العكس صحيح . كلما قلت الحقائق التى تتجمع لدى الكاتب ، كان ذلك أفضل ؛ وخير الأمور أن يكتب الإنسان بلا حقائق مجمعة على الإطلاق . . هل تفهم قصدى ؟ .

ولكن ماكس لا يفهم شيئاً من هذا الكلام ، وإن كان يبدى استعداده للاقتناع به .

ويتمتم ماكس بكلمات مثل تعاويذ السحر ، ويقول وكأنه يخاطب نفسه :

— هذا ما كنت أفكر فيه دائماً يا ميللر . . إن الكتابة يجب أن تنبع من القلب ، ويجب أن يكون لها تأثير على الإنسان .

إن عقل الإنسان بلا شك يقفز قفزات سريعة تثير العجب !

فى أقل من دقيقة واحدة استطاع ماكس أن يميز فن الكتابة . جلست بالأمس مع بوريس ، وقضينا اليوم بأكمله نناقش هذه المسألة . . مسألة « الكلمه الحية » . . الكلمة التى تخرج مع عملية الشهيق والزفير . . عمليه فتح الفم البسيطة ، حيث يكون قلب الإنسان مرتبطاً بالله . . هذه مسألة يدركها ماكس على طريقته الخاصة ، الحقائق فى فى حد ذاتها لا تعنى الكثير أو القليل . الإنسان هو المهم ، فالإنسان هو الذى يقف وراء الحقائق ، وهو الذى يرتبط بالله ، وهو الذى يتكلم كما يتكلم العلى القدير .

وتساءلت إن كان من الصواب أن يرى ماكس كتابى ، وأن يقرأ منه صفحات أمامى حتى أتبين إن كان سيتمكن من إستيعابه أم لا .

ثم بوريس . . ؟

فكرة رائعة أن أقدم ماكس إلى بوريس !

سيترك ماكس إنطباعا معينا على بوريس بلا شك ، وأنا أود لو أن ألمس ذلك بنفسى ، ومن المؤكد أن وجود ماكس سيعمل على تغيير الجو ، وسينفض عنا غبار السأم الذى نعيش فيه ، ويكفينا ذلك على

العشاء . وعندما اقتربنا من البيت ، أوضحت الأمر لماكس . إن بوريس صديق طيب ، وهو يحترف الكتابة مثلى .

وقلت مؤكداً لماكس :

— لا أستطيع أن أعدك بأن يفعل بوريس من أجلك شيئا ، إن كل ما أطلبه منك هو أن تلتقى به .

ورحب ماكس ترحيبا كبيراً بالتعرف على موريس ، ولم لا ، وبوريس يهودى هو الآخر مثله مما يسهل الأمر ، ثم أن بى رغبة لأن أراهما يتبادلان أمامى الكلمات العبرية المزوجة بالألمانية ، وماكس يذرف الدمع أمام بوريس ، وبوريس ينتحب أمام ماكس ، وقد يطلب بوريس من ماكس البقاء معه فى حجرته الصغيرة بالطابق العلوى فترة من الزمن . وياله من مشهد مثير أن أرى الإثنين يقيمان معا فى حجرة واحدة وماكس يقوم بتأدية الأعمال لبوريس ، من طهى الطعام وكى الملابس ، فهو على استعداد لأن يؤدى أى شىء فى سبيل لقمة العيش .

وبمجهود كبير أحاول أن أخفى تحمسى للفكرة ، فأقول لماكس :

— يجب أن تعرف يا ماكس أن بوريس شخص غريب الأطوار .

ولكن ماكس لا يهتم بذلك ، وفى اعتقادى أنه لا يجب الخوض فى توضيح هذه المسائل العميقة الآن ، ولندعهما يجتمعان ببعض ويتفاهمان بقدر الامكان .

ويدخل علينا بوريس من الباب فى حلته الأسموكنج الجميلة، شاحب الوجه، هزيل الجسد، نحيفا كما لو كان قد فاق لتوه من حلم عميق .

وما أن أنطق باسم ماكس أمام بوريس، حتى يتهلل وجهه بالبشر . لقد سمع عن ماكس كثيراً ، وهو يحس الآن أنه مدين لى لاحضاره إلى البيت للتعرف عليه .

وبوريس من الأشخاص الذين يتمتعون بشخصية جذابة توحى بالعطف . وعندما ندخل إلى الأستديو ، نجده راقداً فوق وسادة وقد شد على جسده النحيف بطانية سمراء .

المشهد الآن ليهوديان . . الإثنان واقفان وجها لوجه . كل واحد منهما ذاق طعم المعاناة وإن كان من غير المفيد أن نخوض فى هذه الموضوعات الثانوية الآن . لندخل فى لب الموضوع على الفور . . ها أنذا أرى نوعين من المعاناة ، نوعين متنافرين ومتناقضين تماما . . بوريس مضجعا بظهره على الفراش ، إنه أجمل رسول معاناة عرفته فى حياتى إنه إنجيل بشرى مفتوح . على كل صفحة من صفحاته صورة للمعاناة ، وصورة للبؤس ، وصورة للتمزق ، وصورة للكرب واليأس ، وصورة للهزيمة واندحار الجنس البشرى .

وعلى الناحية الأخرى يجلس ماكس فوق حافة المقعد . صلعته بها غور شديد يمتد إلى أسفل الجبهة وكأن المعاناة ذاتها قد تحولت إلى بلطة حادة هوت فوق رأسه . إنه قوى. إنه فى مثل قوة الثور ، ولكنه أضعف

بقليل من بوريس ، فماكس لم يعانى إلا من الآلام البدنية كالجوع ، وحشرات البق ، والمراتب الخشبية ، والبطالة ، والذل .

وظل ماكس يقوم بعدة محاولات كى يستخلص لنفسه بعض الفرنكات من بوريس ، وهو جالس على حافة المقعد وقد توترت أعصابه بعض الشىء ، فنحن لم نمنحه الفرصة بعد لعرض قضيته من البداية إلى النهاية ، وهو يحاول بدوره أن يتصيد كلمة يدخل بها فى الموضوع ، وفى أثناء ذلك يرقد بوريس مسترخيا على فراش الأسف ويتوقع أن يحل ماكس محله لأنه يدرك أن ماكس قد أتى إلى البيت ليتألم نيابة عنه .

وأترك ماكس يحكى قصته ، وأقوم لأفتش لنفس عن كأس ، فقد قررت أن أستمتع بهذه الجلسة بقدر المستطاع . وفى مثل هذه المناسبات كان بوريس هو الذي يواجهنى بسؤاله :

— ماذا تحب أن تشرب ؟

ولكن نظرا لوجود ماكس بيننا ، فإن هذه الفكرة لم تخطر على باله .

وعلى الرغم من أننى أعتبر قصة ماكس من القصص الغالية ، شأنها فى ذلك شأن الاحجار النفيسة ، إلا أن سماعها مئات المرات جعلنى أفتقد حرارتها ، وأصبحت أخشى أن ينفجر عقل بوريس بما يقوله ماكس من « حقائق » ، خاصة وأن بوريس لا يميل إلى سماع الروايات الطويلة وإنما يكتفى بعبارة صغيرة أو حتى بكلمة واحدة ، والخوف

أن يكون ماكس قد جعل قصته مملة ، فها هو يعود بنا إلى فيينا حيث مطاعم الحساء النظيفة ، وبهذه الطريقة ستطول القصه ما فى ذلك شكه ، إذ لا بد أن ننتقل من فيينا إلى بازل ، ومن بازل إلى باريس ، وفى باريس سنحس بالجوع والعوز ، وسنرى الشقاء والبوءس . وما من شك أيضاً ، أن ماكس سيقدم بروفة كاملة لهذا العرض ،وهذا لا يروق لى لأنى أريده أن يخوض فى المعمعة مرة واحدة ، وأن يغوص فى الوحل الراكد ، وأن يندمج فى الملل الكئيب ، وأن يقف فى العراء ، وأن يذوق لدغات البق الخبيثة ، حيث الأبواب كلها موصدة ، وحيث طرق النجاة جميعها مغلقة ، وحيث لا أصدقاء ، ولا ملاذ ، ولا عمل ، ولا شيء على الأطلاق .

ولم يبدو على بوريس الإهتمام بمواصلة الاستماع لماكس . إنه يريد أن يسمع شيئا دراميا . . شيئا قذرا . شيئا قذرا وجميلا ومخيفا ، وواقعيا أيضاً .

وأنا واثق أن ماكس سيخرج بوريس من ملابسه .

ولكن لا . .

تبينت أننى مخطىء فى ظنى . إن بوريس يطلب من ماكس أن يقص عليه القصة من بدايتها إلى نهايتها ، فعندما يكون مزاج بوريس معتدلا يبدى نوعا غريبا من القدرة على الصبر والتحمل ، لأنه بذلك يستطيع أن يمنح نفسه الفرصة للتفكير فى حل مشكلة ما ، ومن

ثم يشعر براحة نفسية عميقة .

وأرقب بوريس عن كثب .

هل يصغى بوريس إلى ماكس بالفعل ؟

نعم . . إن بوريس يصغى إليه بحواسه الخمس ويبتسم ابتسامة خفيفة من وقت لآخر .

ويغرق ماكس فى برميل من العرق . إنه لا يكاد يتلمس تأثيره على بوريس ، وبوريس يستمع إليه كما لو جالسا فى الأوبرا ، وماكس من هذه الناحية أفضل من الاوبرا بلا شك خاصة وأن بوريس مسترخ فوق حافة الوسادة ويشد على جسده البطانية .

ويخلع ماكس معطفه . .

عرق غزير يكسو وجهه وكل جسده لما يبذله من جهد مع بوريس ، وأنا جالس بدورى بالقرب من حافـــــة الوسادة ، أشيع بصرى بين ماكس وبوريس .

ولما كان باب الحديقة مفتوحا ، فقد أطفت الشمس بهالة من النور حول رأس بوريس ، وكان على ماكس أن يعطى وجهه للحديقة إذا كان يريد أن يوجه حديثه إلى بوريس،وكانت أشعة الشمس الدافئةعصر ذلك اليوم تنساب داخل الأستوديو الرطب فتشيع فيـه الدفء وتدخل الحرارة فى حديث ماكس . وتبدو على بوريس نعمة الراحة وهو مسترخ على حافة الوسادة ، فلا أستطيع مقاومة الأغراء فى الجلوس إلى

جواره ، فأتخذ لنفسى مكانا إلى جواره بالفعل ، وأنصت إلى قصة مألوفة عن الألم وأتلذذ بها .

وأترك ماكس يواصل حديثه مع بوريس ، وأجول ببصرى فوق الرف بجوارى ، وأحس فى جلستى هذه وأنا منصت بكامل عقلى إلى القصة ، أننى أصبحت فى وضع أفضل من ذى قبل ، وأننى أستطيع أن أحكم على مدى تأثير القصة بطريقة أمثل ، ولا غرو إذا قلت أننى تبينت ثمه اختلاف فى القصة لم يسبق أن تبينته من قبل . فالكلمات وهى تخرج من بين شفتى ماكس ، وعناوين الكتب التى أتفحصها ، والهواء الدافىء الذى يشع فى الحجرة من باب الحديقة وطريقة ملابس ماكس فوق حافة المقعد . . كل هذه الأشياء تجمعت واتحدت مع بعضها البعض وجعلتنى أحس بأكبر لذة ممكنة .

والحجرة ، كعادتها ، كانت تسبح فى حـــالة من الفوضى وسوء التنظيم .

كانت تتكدس فوق المنضدة الواسعة تلال من الكتب والمخطوطات والملاحظات ، والخطابات التى كان من المفروض أن أقوم بالرد عليها منذ شهر تقريبا ولم يحدث . . كانت الحجرة تعطى الإحساس بأن رجال الشرطة قد داهموها بغتة وألقوا القبض على شخص ما بداخلها ، أو كأن الكاتب الذى يعيش فيها قد مات فجأة ، وبأمر خاص لم تمتد يد إلى أى من محتوياتها .

ترى ، لو أننى قلت لما كس أن هذا الرجل الذى يسترخى أمامه على حافة الوسادة والمدعو بوريس قد مات منذ زمن بعيد ، فماذا عساه أن يقول ؟ إن بوريس يتفق معى تماما حول مسألة الموت هذه ، ولعل هذا هو سر قدرته على الاستماع إلى ما كس بطريقته المفضلة : طريقة الأوبرا . والمطلوب من ما كس الآن ، أن يموت بدوره إذا كان يريد أن يعيش هو الآخر .. أن يموت لحما ودما كما مات بوريس من قبل .

وتلمح عيناى ثلاثة كتب ، الواحد بجوار الآخر ، وكأن ترتيبهم جاء عن عمد وقصد . الكتاب المقدس ، وبجواره كتاب بوريس ، ثم كتاب نيتشة عن الرسائل المتبادلة بينه وبين براندز .

ومنذ عدة ليالى، كان بوريس يقرأ لى أصحاحا من إنجيل لوقا ويتهمنا بأننا لم نعد نقرأ كثيرا من إنجيل العهد الجديد . ثم آخر خطاب كتبه نيتشه عن « المصلوب الأوحد » الذى ظل مدفونا فى مقبرة الجسد ثلاث سنوات كاملة ، ومن حوله العالم يشدو مترنما فى مدحه .

ويشدنا ما كس إلى قصته . يعود بنا إلى ما كس الكوجى .. ما كس الذى كان يعيش فى البداية فى مكان ما بمدينة لمبرج بالقرب من الحصن الكبير، ثم نزح ضمن من نزحوا .. بالآلاف نزحوا .. رجال لهم وجوه عريضة ، وشفاه غليظة من أسفل ، وعيون غائرة فى الجبهة مثل ثقبين فى بطانية بفعل حريق ، والأذن كبيرة وعريضة جداً ، والخياشيم مفلطحة ،حساسة ، مأساويه . آلاف من اليهود احتشدوا عند مدخل

لمبرج ، يكسو وجوههم حزن عميق ، وتغور رؤوسهم بشدة بين أكتافهم ، ويسيطر عليهم أسف شديد .

والغالب أن بوريس ينحدر من جنس آخر .. جنس ضعيف واهن .. جنس ضبطت أوتاره بطريقة غاية فى الدقة والنظام .

ويمسك بوريس بالقلم فى يده ويحاول أن يعلم ماكس العبرية . والقلم فى يد بوريس يتحرك فوق الورقة فى سهولة ويسر ، ولكنه يتحول فى يد ماكس إلى يد مكنسة غليظة ، وتخرج الحروف مرسومة غير منقوشة . وعلى أى الحالات ، فإن طريقة بوريس فى الكتابة هى الطريقة التى يؤدى بها كل شىء . طريقة مرحة .. خفيفة .. رشيقة .. سليمة ، ومحددة . إن بوربس لا ينقصه شىء سوى كتابة الحروف مشبكة حتى يتمكن من الكتابة بسرعة .

والجوع لا يشكل لبوريس أى قلق . الأغبياء وحدهم هم الذين يتلقون إذا جاعوا . ومنظر الحديقة لا يهمه فى شىء ، إنه يكتفى بأن يعلق على جدار الحجرة ستارة خشبية لمنظر عام يمثل أشجاراً وأزهاراً . أما ماكس فإنه شديد التأثر بمنظر الحديقة . ولن يتورع فى أن يأخذ مقعداً ويجلس فى الحديقة إذا طلب منه ذلك ، بل إنه مستعد لأن ينتظر أسبوعا كاملا إذا لزم الأمر ، ولن يعوزه شىء إلا الطعام .. الطعام ومنظر الحديقة .

ويخاطب بوريس نفسه قائلا :

— لا أدرى ما الذى يمكن أن نفعله من أجل هذا الرجل !

وبعد فترة يستطرد قائلا :

— حالة ميئوس منها .

ويهز ماكس رأسه مصدقا على كلامه . نعم ، إن ماكس حالة لا يختلف على ذلك أحد . ولكن ، أن تكون الحالة ميئوس منها ، فأناشخصياً لا أستطيع أن أقبل ذلك إطلاقا !

لا . .

لا يأس مع الحياة ·· لا يأس طالما بقيت فى هذهالحياةذرة واحدة من العطف والحب !

إننا نسلم بوجود الحالات ، ونسلم بأن هذه الحالات قد تكون يائسة ، ولكن أن يكون ماكس الإنسان ....

لا .. لا .. لا ..

ما زال هناك الكثير الذى يمكن أن نفعله من أجل ماكس الإنسان . إننا سنتناول طعام العشاء ، ولذا فيمكننا أن نقدم له الطعام ، وقميصاً نظيفاً ، وحلة جديدة ، ويمكنه أن يقوم ليأخذ حماماً ويحلق شعره ، ولنؤجل فى الوقت الحالى مسألة حل المشكلة . لنقدم أولا ما هو ضروري ولازم . ولاشك أن بوريس يوافقنى على ذلك وإن كنت أختلف معه فى الأسلوب .

ويصيح بوريس بأعلى صوته وكأن ماكس غير موجود بيننا :

— يمكنك أن تعطيه نقوداً ياميللر وإن كان ذلك لن يحل المشكلة .

ولم لا ؟

لم لا أعطه نقوداً ؟

ولم لا أقدم له الطعام والمسكن والملبس ؟

لم لا ؟

لماذا لا نبدأ من الأساس ، ثم نتدرج إلى أعلى ؟

يقول بوريس :

— لو كنت قد قابلتك يا ماكس فى مانيلا لكنت قد استعطت أن أفعل من أجلك شيئاً ، ولكنت قد ألحقتك بعمل هناك .

مانيلا ..؟ يا إلهى !! كم يبدو ذلك ثقيلا على نفسى! وبحق الشيطان ما دخل مانيلا فى هذه المسألة ؟ غريق يصرخ ويطلب النجاة ، ومع ذلك تقول له : آه يا صاحبى لو كنت قد جعلتنى أعلمك العوم !

كل واحد منا يريد أن يصلح الكون ، ولكن ولا واحد منا يريد أن يساعد أخيه الإنسان. كل واحد منا يريد أن يخلق من الآخر إنساناً ، ولكن ولا واحد منا يريد أن يضع فى اعتباره مسألة الجسد ..

غرور .. غرور .. غرور ..

وبوريس أيضا مغرور إذا كان يسأل ماكس إن كان له أقارب فى أمريكا . ياله من سؤال ساذج وسخيف ومناورة مكشوفة . إن الباحث الاجتماعى عندما يبدأ مباشرة مهمته يستخدم نفس الأسلوب . إنه

يسأل عن الإسم ، وعن السن ، وعن العنوان ، وعن الوظيفة أو المهنة ، وعن الديانة ، ثم فى منتهى البراءة والسذاجة يقول : من هو أقرب الناس إليك .. إذا سمحت ؟ وكأن الإنسان قدنسى من هو قريبه وأصبح فى حاجة إلى من يذكره بذلك . أليس من الأفضل للإنسان أن يموت ألف مرة عن أن . . . .

وهم يجلسون كالسهم على القلب . يسألون عن الإسم السرى ، وعن إسم الفضيحة ، ويسرعون إلى المكان على الفور ، ويدقون جرس الباب ، ويدخلون الشقة ليفتشوا كل شبر فيها ، ويقلبونها رأسا على عقب ، بينما أنت جالس هناك ترتعد خوفا ، ويتصبب منك العرق فى غزارة من الخزى والعار .

على أن ماكس لا يتردد فى ألإجابة على سؤال بوريس .

نعم يابوريس ..

كان لماكس شقيقة فى نيويورك ، ولكنه لم يعد يعلم عن مكانها شىء . كل ما يعرفه عنها هو أنها انتقلت إلى حى كونى آيلاند ، ولا شىء غير ذلك .

ومما لا شك فيه أن ماكس لم يكن له ذنب فى مغادرة نيويورك . لقد كان يكسب كثيراً هناك . كان يقوم بكى الملابس ، وكان عضوا فى النقابة ، وعندما حل فصل الكساد ، ذهب ليجلس فى المنتزة بالقرب من ميدان الإتحاد ، وهناك اكتشف أنه ليس ذا قيمة .

فى المنزة كان يراهم وهم يمتطون صهوة جيادهم الشامخة ، ويطلبون أن يتنحى جانبا ليفسح الطريق أمام الخيل . لماذا كانوا يطلبون منه ذلك ؟ هل كان السبب لأنه أصبح بلا عمل حينئذ ؟ وما ذنبه فى ذلك ؟ هل كان خطأه هو ؟ هل اقترف إثما فى حق الحكومة أو الدولة ؟ المرارة تملأ قلبه ، والحنق بلغ مداه ، وهو ممتعض من كل شىء حتى من نفسه !

حتى الآن لا يعرف بأى حق وضعوه فى السجن ، ولا بأى حق أذلوه وأهانوه كما لو كان دودة قذرة !

ويقول ماكس :

— أردت أن أصنع من نفسى شيئا . أردت أن أوءدى عملا آخر أكسب به قوتى غير العمل بيداى طول الوقت ، وهذا ما دعانى إلى تعلم الفرنسية ، فقد فكرت فى أن أقوم بأعمال المترجم .

ويحدقنى بوريس بنظرة خاطفة وكأنه قد وضع يده على الوتر الحساس .

حلم كل اليهود !

الحلم فى أن لا يقوموا بأى عمل يعتمد على أيديهم .

إنهم ينتقلون من برونكس إلى كونى آيلاند لأن الانتقال من برونكس إلى كونى آيلاند حلم آخر من أحلام اليهود ، وإن كان يعنى الانتقال من كابوس إلى كابوس .

بوريس نفسه دار حول العالم ثلاث مرات ، ولكنه كان دائماً يعود للتنقل بين برونكس وكونى أيلاند . وعندما كانت النازية تحكم ألمانيا رفع اليهود شعار : « غادروا لمبرج وارحلوا إلى أمريكا » أجل . . . الرحيل والتنقل .

سيرى أيتها الأقدام المثقلة . .

سيرى إلى الأمام ، وسيرى . .

لن تذوقى طعم الراحة ، ولن تعرفى مكانا تستريحين فيه ، ولن تكون هناك نهاية لشقاءك . ملعونة أنت ، وملعونة أنت إلى أبد الأبدين !

لا أمل . . لا أمل على الإطلاق !

وأنت يابوريس . .

لماذا لا ترمى فى أحضانه ؟

هل تعتقد أننى أبالى بشىء ؟ أم ترى أنك مكسوف ؟ مكسوف ؟ من أى شىء أنت مكسوف ؟ أنت يابوريس خير من يعلم أنكم جنس ملعون ، وأنه ليس فى مقدورنا أن نفعل من أجلكم شيئاً . إن كل مافى استطاعتنا هو أن نعطف على كل واحد منكم . أنتم يامعشر اليهود الرحـــل .

تقفان الآن يا بوريس وجهاً لوجه . أخا لأخ . ومع ذلك تعجز عن معانقة أخيك ، ياله من جرم لا أستطيع أن أغفره لك !

أنظر يابوريس إلى ماكس . إنه وجهك الآخر . إنك تدور وتلف حول العالم ثلاث مرات ثم تعود لتقف أمام نفسك وجها لوجه . كيف تسول لك نفسك أن تهرب منه . . ؟

ليلة البارحة كنت تقف فى نفس المكان الذى يقف فيه ماكس الآن ، وكنت ترتعد وتتذلل إلى كالكلب الذى ضربه سيده علقة . واليوم تقف فى سترتك الأسموكنج الجميلة ، وتغدو فى حيوية ونشاط ، ومع ذلك فلم يتغير منك شيء .أنت كما أنت يابوريس. أنت نفس الرجل. ذرة واحدة لم تتغير فيك . كل ما هناك أنك قد أصبحت غنيا .

أتسأله يابوريس إن كان له أحد الأقارب فى أمريكا ؟

قل لى أنت : هل لك قريب فى أمريكا ؟ أعلم أنك ستقول لى أمك ، وحسنا ما قلت . ولكن خبرنى يا بوريس . . أين هى أمك الآن ؟ هل مازالت تعيش فى حى اليهود حتى يومنا هذا ؟ هل ما زالت تقيم فى تلك الحجرة القذرة الضيقة التى هربت منها أنت ذات يوم عندما قررت أن تصنع من نفسك شيئاً؟ نجحت يابوريس،ولعلك الآن فخوراً بهذا النجاح، ولكنك كافحت حتى الموت من أجل أن تحل مشكلاتك . هل تظن أنه كان فى مقدورنا أن نعيدك إلى أمك فى نيويورك إذا لم تكن قد نجحت، وإذا كنت مازالت تقف كما يقف ماكس الآن؟ وماذا تنتظر من ماكس أن يقول لك ؟ هل تنتظر منه أن يقول أنه لو استطاع فقط أن يعثر على شقيقته فى نيويورك لما تردد لحظة فى الارتماء بين ذراعيها ، ولظل يعمل

من أجلها حتى آخر قطرة من دمه ، ولعاش طول حياته عبداً لها ، ولسار وراءها كالكلب ؟ على العموم ، هو مستعد لأن يقوم بخدمتك يابورس إذا استطعت فقط أن تقدم له الطعام والمسكن . ولكنك للأسف تقول أنه لا يمكنك أن تفعل من أجله شيئا . أعرف ذلك يابوريس . أعرف ذلك تماما ، ولكن بربك ألا تستطيع أن تفعل من أجله أى شيء ؟ لنذهب إلى مانيلا إذا إقتضى الأمر لنبدأ الشوط من جديد إذا أردت ، ولكن حرام أن تطلب منه أن يبحث عنك في مانيلا منذ ثلاث سنوات . إنه يقف أمامك الآن . . يقف أمامك بلحمه ودمه . ألا تراه يابوريس ؟

وأتجه بحديثى إلى ماكس :

— نفرض ياماكس أنه كان لك الخيار . . أقصد . . نفرض أنه كان فى إمكانك أن تذهب إلى أى مكان تختاره لتبدأ حياتك من جديد . . فأين كنت تحب أن تكون ؟

وعلى الرغم من أننى أدرك مدى صعوبة السؤال ، إلا أننى لا أستطيع أن أقف مكتوف الأيدى أمام حالة ميئوس منها .

إسمع ياماكس . . إننى أحدثك فى نفس الموضوع . . إننى أطلب منك أن تنظر إلى العالم وتعتبره كأنه ينتمى إليك . أنظر إلى الخريطة . . ضع أصبعك على المكان الذى تحب أن تذهب إليه . لا تقل ما الفائدة . لا تقل ذلك ، فحيثما تذهب إلى أى مكان تختاره ، فإنك تذهب إليه

بدافع من الحاجة، وقد تستطيع أن تحقق وأنت فى منتهى اليأس مايعجز عن تحقيقه مليونير .

السفينة فى الإنتظار ياما كس .

والوطن فى الإنتظار . .

والعمل فى الإنتظار . .

وكل شيء فى الإنتظار .

لا يعوذك إلا ان توء من بما تقوم به .

صدقنى ياما كس . . ربما لا يكون فى جيبى فلس واحد ومع ذلك فأنا على استعداد لأن اساعدك على السفر إلى أى مكان تحب ان تذهب إليه . بل إننى على إستعداد ايضا لأن امسك بقبعتى وامدها للناس لنشحذ معا ، فما ايسر ان امد يدى للناس من اجلك على ان امدها من اجل نفسى . فقط قل لى الآن إلى اين تحب ان تذهب ، وسأخرج معك على الفور !

إلى اين ياما كس ؟

إلى القدس . . ؟

إلى البرازيل . . .

ماهو المكان بالضبط ؟

ويتكهرب ما كس . إنه يعرف المكان الذى يحب أن يذهب إليه،

بل والأكثر من ذلك أنه يتخيل نفسه فى الطريق إلى هناك .

ولكن ثمة نقطة معينة تقف حائلا دون ذلك : المال . من أين يأتى بالمال اللازم للرحلة ؟

ولكن المال ليس بالمشكلة الصعبة يا ماكس . كم تتكلف الرحلة ؟ ألف فرنك مثلا ؟ أتعتقد أن ذلك مبلغاً كبيراً ؟

ويتردد ماكس لحظة. لا يقلقه المال هذه المرة ، وإنما القدرة .. القدرة على السفر إلى الأرجنتين . إنه يسأل نفسه إن كانت له القدرة والشجاعة المعنوية على أن يبدأ حياته من جديد . لقد بلغ من العمر الآن ثلاثة وأربعون عاماً ، وهو يقول ذلك كما لو كان قد بلغ سن الكهول ، ونسى أن تيتيان قام برحلته الخاصة من أجل الفن وله من العمر سبعة وتسعون عاماً . وماكس قوى البنية ، موفور الصحة . لا أهمية للجرح العميق بجبهته الذى نتج بفعل بلطة حادة انزلقت فوق رأسه . صحيح أنه أصلع الرأس ، ولكن العضلات تملأ جسده ، وعيناه مازالتا صافيتان .

والأسنان ؟

آه من الأسنان !

من أيام كان يشكو من ورم كبير بضراضيره . ذهب إلى طبيب الأسنان . كشف عليه الطبيب ولم يجد عنده شيئاً . هل تعرف ماذا قال له طبيب الأسنان ؟ قال له : لا شىء يا ماكس . لا شىء البته . إنها

الأعصاب . الأعصاب هى التى أدخلت الفزع فى حياتك .

ويفتح ماكس فمه حتى أرى أسنانه المتسوسة ، ويضرب كفا بكف وهو يقول :

— كيف استطاع طبيب أسنان أن يعرف أن أعصابى متوترة ؟ إنه أمر محير بالفعل .

ومرة ثانية يتكهرب ماكس .

سواء كانت له أسنان أو لم تكن له أسنان ، وسواء كان أصلع الرأس أو أحول العين أو حتى مصاباً بآلام الروماتزم أو تورم القدمين .. فليس لذلك أهمية بالطبع بالمقارنة بالمكان الذى يريد أن يذهب إليه .

إنه لن يذهب إلى القدس على أى حال !

إن الإنجليز لن يسمحوا بتوطين مزيد من اليهود فى القدس . لقد زاد عددهم الآن بالفعل ويوم أن اشتد الطلب على اليهود ، رفعوا شعار : « القدس لليهود » ، أما اليوم فلابد من وجود سبب أقوى من مجرد كونك يهودياً .

يا يسوع القدير . . إننا نعيش زمناً عصيبا هذه الأيام . لو كنت يهودياً لما ترددت فى شنق نفسى بحبل . أمامى يقف اليهودى ماكس بشحمه ودمه ومع ذلك لا أستطيع التخلص منه حتى لو ربطت عنقه بغاطس السفينة وقلت له : مت بجلدك أيها اليهودى .

ولكن يبدو أننى أفكر بطريقة اليائس من كل شيء . ولو أننى كنت ذلك الكلب اليهودى ماكس الذى ضربه سيده علقة . . لو أننى كنت مكان ماكس . . يا إلهى . . ماذا يمكن أن يحدث ؟ إننى لا أطيق أن أتصور نفسى يهوديا بأى حال من الاحوال . أنا إنسان .. بكل بساطة إنسان . . إنسان يائس . . إنسان لا يعرف طريقا يشقه لنفسه .

وألتفت إلى بوريس لاقول له :

— يجب أن تفعل شيئا من أجل هذا الرجل . هل تفهم ؟

ويهز بوريس كتفيه ويسألنى :

— ومن أين نأتى بالمال اللازم ؟

أتسألنى أنا يابوريس ؟ أتسألنى من أين نأتى بالمال اللازم ؟ المال ؟

ماهو المبلغ المطلوب ؟ ألف فرنك ؟ ألفين من الفرنكات ؟ أتسمى ذلك مالا ؟

طيب . . حدثنى أنت عن السيدة اليهودية الأمريكية . . السيدة الحمقاء التي تدعى چان التي كانت هنا منذ أسابيع قليلة . . ألم تمنحك ذرة حب واحدة ؟ ألم تعدك بأى شيء على الاطلاق ؟ لقد كانت تأتى إلى هنا كل يوم ، وكانت توجه إليك إهانات لاذعه ومع ذلك كنت تطعمها كما لو كنت من كبار الاثرياء. يالها من مومس لعوب لا تعرف إلا الإبتذاذ

أموال الرجال ! لو كانت هذه السيدة بغيا رسميا لما كانت أسوأ مما هى عليه ، ولكنها للأسف أقذر من بغى . أهانتك ، وجرحت كبرياءك وناديتك باليهودى النتن ، ومع ذلك ظللت تقدم لها الطعام ، ولا تبخل عليها بشىء . أخال أن المشهد سيتكرر مرة ثانية غداً ، ومن يدرى ؟ أى إنسان بوسع أن يأخذ منك كل ما يريد يابوريس إذا نجح فى إثارة غرورك وتملقك .

أتقول لى يابوريس أنك أصبحت فى عداد الأموات ، وأنك منذ رحلت إلى الدار الآخرة وأنت تقيم جنازا طويلا ؟ قل لى بحق الشيطان .. ياخير من يدرى أنك حى ترزق . . ما معنى الموت الروحى وأمامك الآن ماكس يقف بلحمه ودمه ؟

مت يابوريس . .

مت ألف مرة ومرة . .

كل ما أرجوه منك هو أن تقبل التعرف على أخيك الإنسان . . الإنسان الحى . . وأن لا تحاول أن تخلق منه مشكلة ، فهو لحم ودم، لحم ودم يابوريس ، وهو يصرخ ويتألم وأنت تصم أذنك عامداً متعمداً ولا تبالى بشىء ، وتتظاهر بالموت أمام الجسد الحى ، أمام لحمك ودمك! ثق يابوريس أنك لن تجنى شيئاً ، مالم تتعرف على أخيك الحقيقى . على أخيك ماكس

أنظر يابوريس . .

كتبك الكثيرة الموضوعة فوق الرف هناك • أنظر إليها جيدا •
أليست هى كتبك ؟ ألا تشم رائحة العفن تفح منها؟

إن فيلسوفك نيتشة المريض ليست له فائدة • •

ومسيحك الحبيب الشاحب الوجه ليست له فائدة • •

وكاتبك المفضل ديستوفيسكى الجريح ليست له فائدة أيضاً • •

كل هذه الكتب يابوريس ليست لها فائدة ومن الافضل أن تحرقها كلها ، وأهون عليك أن تهز كتفيك فى قنوط على أن تتباهى بأنك قرأت سطرا واحداً منها •

كلام المسيح كذب فى كذب • •

وكلام نيتشة كذب فى كذب • •

وكل شىء كذب فى كذب •

ومالم تحس بوقع الكلمة فى الجسد ، وتكف عن الاحساس فقط بما يعجبك فى كتاباتهم ، وتتمكن من مواجهة الرجل المتعفن الماثل أمامك الآن ، فإن كل شىء سيبدو لك كذبا فى كذب ، وسيبدوا لك الجميع أغبياء • كذبة • مرضى •

عد من حيث أتيت يابوريس • •

عد إلى كتبك وأدفن نفسك فيها . .

عد وعش فيها إلى عصورك الوسطى .

عد إلى فيلسوفك كابالا • •

مشط شعرك . . إغرق فى هندسة الزوايا والدوائر . لم نعد فى حاجة إليك . إننا نبحث عن نسمة حياة . . عن بصيص أمل . . عن لحظة شجاعة واحدة . . وعن الخيـــال ولو كان سرابا . إننا نبحث عن العطف الإنسانى حتى ولو كان مثقال ذرة واحدة ؟

* * *

وصعدنا إلى مسكنى بالطابق العلوى .

حنفية الحمام مفتوحة ، وماكس انتهى من خلع كل ملابسه بما فى ذلك الملابس الداخلية القذرة ، وعلق قميصه على ذراع المقعد .

وعندما يخلع ماكس ملابسه يبدو كالشجرة الملوءة نتوءاً وتجاعيدا وكأنها قاست وتألمت كثيراً فى سبيل أن تعلم السير على قدميها . إنه الرجل الذى إفتتح حانوتا لبيع العرق وقد علق قميصه على المقعد ، وظهر جسده القوى مقوسا بفعل العمل الشاق .

من لمبرج إلى أمريكا . . ومن برونكس إلى كونى آيلاند .

آلاف مؤلفة من اليهود . . تحطمت عظامهم ، وتقوست ظهورهم وتورمت أقدامهم ، وكأنهم قد غرسوا جميعاً فى بصاق .

فقدوا إيمانهم بالكفاح ، لأنهم سواء كافحوا أو لم يكافحوا ، فسيموتون أحياءاً .

ومازالت صورة هؤلاء الآلاف على شاكلة ماكس عالقة بذهنى عصر يوم أحد فى كونى آيلاند . أجسادهم المحطمة تلطخ شاطىء البحر

الجميل على امتداد أميال . العرق ينهمر من أجسامهم ليصنعوا منه بالوعة يستحمون فيها . يرقدون على الشاطىء الواحد فوق الآخر بطريقة متشابكة مثل أبو جلمبو والأعشاب البحرية . على مسافة غير بعيدة من الشاطىء أقاموا أكواخا جاهزة صغيرة تتكون من حجرة واحدة يستخدمونها كتواليت ومطبخ ومسكن للنوم . وفى السادسة صباحا يدق الجرس فى الميعاد ، وفى السابعة تجدهم منتشرين تحت الأنفاق . . بالوعة بجوار بالوعة والروائح النتنة تفح من المكان كله وتستطيع أن تفتك بجمل .

وأترك ماكس ليأخذ حمامه وأذهب أعد له بعض الملابس الداخلية النظيفة ، وقد جهزت له الحلة الواسعة التى أعطاها لى الرجل ، وكلى ثقة أن ماكس سيشكرنى عليها بحرارة .

وجلست أفكر فى الأمور بهدوء .

ماهى الخطوة التالية ؟

لقد اتفقنا على أن نتناول العشاء فى الحى اليهودى بالقرب من سان بول ، ولقد اعتذر بوريس عن الذهاب معنا لإرتباطه بموعد على العشاء، ولقد استطعت أن أحتال عليه وآخذ منه بعض النقود لمواجهة مصاريف العشاء .

وقبل أن يغادر بوريس المنزل ، مد يده إلى ماكس وأعطاه بعض النقود القليلة قائلا :

— خذ هذا لك ياماكس !

رأيته بعيني وهو يخرج النقود من جيب بنطلونه الكاوبوى ، ولقد تألمت كثيراً لسماعى بوريس يقول هذا الكلام لماكس ، وتألمت أكثر لسماعى ماكس يشكره بحرارة . وأنا أعرف بوريس جيداً . أعرف أن هذه النقطة هى النقطة السوداء فى حياته . وعلى الرغم من أننى أستطيع أن أغفر له هذا التصرف مع ماكس ، إلا أننى لا أستطيع أن أغفره لنفسى إن كان قد بدر منى . ومع ذلك فأرجو أن لايتبادر إلى الأذهان أن بوريس رجل فظ أو غليظ القلب . لا ، إنه ليس كذلك ، ولا هو حتى بالرجل الوضيع . كل ما هناك أنه يصرف على بعض أقربائه ،ويقوم بسداد ديونه . وهو ليس من الرجال الذين يخدعون أو يغشون . وحتى إذا تصادف أن تسبب فى افلاس أحد فإنه يفعل ذلك طبقا للقواعد والأصول ، وعلى العموم فهو ليس بأسوأ من مورجان أو روكفلر . باستطاعته أن يلعب الدور على حد القول ، ولكن الحياة ، كما يتصورها ليست لعبة على الإطلاق . إنه يستطيع أن ينتصر فى أى مجال من المجالات ، ولكنه فى النهاية يكتشف دائماً أنه قد خدع . وهاهو قد لعب الدور مع ماكس، وانتصر فى منتهى اللباقة .. إنتصر مقابل بعض الفرنكات القليلة التى أعطاها له والتى ظل ماكس يشكره عليها بكل حرارة . وأنا واثق تماما أنه عندما يخلو إلى نفسه فإنه سيلعن نفسه

ويسبها ، وربما يصرف الليلة أضعاف ما دفعه لماكس مقابل أن يكفر عن خطيئته !

وسمعت ماكس ينادى وهو فى الحمام ، وعندما توجهت إليه سألنى إن كان فى استطاعته أن يستخدم فرشاة شعرى ، فأذنت له بذلك . (غداً سأشترى واحدة أخرى جديدة .) وحانت منى التفاته إلى حوض الحمام ، ورأيت آخر قطرة من المياه وهى تختفى فى البالوعة وأحسست برغبتى فى القئ من منظر النفايات القذرة التى كانت تطفو فوق قاع الحوض . وانحنى ماكس بجسده فوق الحوض وأخذ يعمل بيديه ليزيل القذارة التى علقت به وينظفه ، فبعد أن تخلص من القذارة التى كانت عالقة بجسده ، أصبح يحس بانتعاش الآن ، ولم يعد يبالى بإزالة القذارة من الحوض بنفسه .

ويرتدى ماكس الملابس النظيفة ، ويشيعنى بابتسامة جديدة مختلفة تماما عما تعودت أن أراه بها . وبعد أن ينتهى من ارتداء ملابسه الداخلية النظيفة ، يمسك بكتابى ويأخذ فى قراءة بعض الصفحات الخاصة ببوريس.. الذى يطفح من جسده القمل وأنا أقوم بحلق شعر أبطه. ثم يستطرد ماكس فى القراءة ، فيقرأ بعض الصفحات عن العلم المنكس فوق رؤوس الموتى من بينهم أنا . ومن يقرأ هذه الصفحات يحس فى النهاية برغبته فى الغناء . ربما كان ذلك من دواعى الحظ ، ولك أن تسميه كيفما تشاء ، سمه الحظ إن كان ذلك يروق لك ، فأنا وحدى

الذى يعرف نقيض ذلك ، لأنه شىء حدث لى أنا . وليس سبب ذلك أننى لا أؤمن بالحظ . لا ، ليس هذا هو السبب وإنما السبب فى بساطة هو أننى لا أعنى ما أقول . ولك مطلق الحرية فى أن تقول أننى قدولدت فى منتهى البراءة ، فهذه النقطة تمس جوهر الموضوع ، وعندما أعود بذاكرتى إلى الوراء، وأتذكر الصورة التى كنت عليها وأنا لم أزل صبيا صغيراً فى السادسة أو السابعة من عمرى ، أحس بالفعل أن شيئا لم يتغير قط ، وأننى مازلت كما كنت دائماً : بريئا وتقيا . بل إنى أذكر أول انطباعات لى عن الكون . كان الكون فى نظرى يبدو مليئا بالخير ، وإن كان مفزعا ، وهو فى رأيى مازال على هذه الصورة حتى الآن . إنه كون ملىء بالخير،ولكنه كون مفزع ومخيف فى نفس الوقت .لقد كان من السهل على أن أحس بالخوف والفزع من هذا الكون ، ولكن روحى ظلت نقية تقية دون أن يمسها سوء ، وربما كان فى إمكانك أن تفزعنى الآن وإن كان من الصعب أن تغير من نقاء سريرتى ، فلقد أصبح ذلك راسخا وقويا داخل روحى ولا تستطيع أى قوة كانت أن تنال منى .

* * *

جلست لأكتب خطابا كطلب ماكس.. خطاب إلى سيدة فى نيويورك على علاقة بصحيفة يهودية . أطلب من السيدة أن تبذل قصارى جهدها فى البحث عن شقيقة ماكس فى حى كونى آيلاند بالشارع رقم ١٥٦

بالقرب من برودواى • • وهذا العنوان هو آخر عنوان يعرفه ماكس عنها •

وسألت ماكس :

— والإسم ؟ ؟

فقال لى أن شقيقته كان لها إسمين • كانت أحيانا تطلق على نفسها اسم « مسز فيشر » ، وكانت أحيانا تطلق على نفسها «مسزجولدبرج» •

فقلت :

— ألا تستطيع أن تذكر المنزل ياماكس؟ أقصد• • هل تستطيع أن تذكر إن كان المنزل الذى تقيم فيه شقيقتك يتوسط البلوك أو فى نهايته؟

ويخبرنى ماكس بأنه لا يستطيع التحديد •

وأحس بأن ماكس لايقول الصدق • إنه يكذب الآن • ولكن لنفرض أنه ليست له شقيقة على الإطلاق ، فما أهمية ذلك عندى ؟ واضح طبعا أن هناك أكذوبة حول قصة ماكس وهى أكذوبة لاتقدم ولا تؤخر لأنها مشكلته هو أولا وأخيراً •

وحتى تكتمل الأكذوبة ، يخرج ماكس صورة فوتوغرافية من جيبه • • صورة التقطت له عندما كان صبيا فى السابعة أو الثامنة من عمره • • صورة أم وولدها . . صورة تكاد تحطم كل الآمال ! تبدو أمه فى الصورة امرأة جميلة ، يقف ماكس بجوارها وكأنه مقيد إليها بحبل . وجهه يبدو فزعا بعض الشيء ، عيناه مفتوحتان على وسعهما ،

شعره منمق وممشط ، سترته مزررة حتى رقبته ، وهما واقفان بالقرب من لمبرج بجوار الحصن الكبير .

ثمه مأساة الجنس البشرى واضحة على وجه الأم . وماهى إلاسنوات معدودات ويكتسب ماكس نفس الملامح ، فكل طفل يولد ومعه ملامح البراءة الذكية ، وعلى عينيه السوداويتين نقاوة وطهارة الجنس البشرى بأكمله ، ولكن ما هى إلا سنوات معدودات وبعدها يبلغ الطفل سن الرشد وتتغيرفيه هذه الملامح فجأة وبلا مقدمات. وبعد أن أن يتعلم هؤلاء الأطفال الأبرياء الوقوف على أقدامهم ، يتعلمون كيف يشغلون بهذه الأقدام ماكينات التعذيب ، ومن ثم يبدأ شعر رؤوسهم فى التساقط ، وتتسوس أسنانهم ، وتتلوى عظام الظهر ، وتتصلب أصابع القدمين ، وتلتهب أصابع اليدين ، ويظهر الكاللو ، وتعرق الأيدى ، وتلتصق الشفاه بعضها ببعض ، وتنكفىء الرؤوس حتى تلامس صحن الطعام فوق المائدة، ويزدردون طعامهم فى صمت مطبق . وأن يظن أحد أن هؤلاء الأطفال قد ولدوا جميعاً فى منتهى النظافة ، وأن أمهاتهم كن ينظفن لهم أقمطتهم بعناية فائقة كل يوم . . . . .

وضعنا الصورة فى الخطاب . من الممكن أن تسترشد بها السيدة فى البحث عن شقيقته . طلبت من ماكس أن يضيف فى ذيل الخطاب بعض الكلمات العبرية — الألمانية . رسم ماكس بطريقته التى تشبه الكتابة بعصا مكنسة بعض الحروف الكروكية ، وأعاد على مسمعى ما كتبه

ولكنني لم أصدق حرفا واحداً مما قاله .

ثم قمنا سويا بتغليف الحلة والقميص القذر فى ربطة من ورق الجرائد. وقد تسببت هذه الربطة فى إحساسه بالقلق. لم تكن الربطة محكمة لأننى لم أجدر دوبارة أحكم بها تغليفها ، وكان صاحبنا يريد عند عودته إلى الفندق الذى يقيم فيه أن تبدو عليه مظاهر الإحترام ، أما إذا رآه أحد حاملا هذه الربطة ، فإنه سيحرج أيم إحراج . على أنه فى كل مرة كنا نتناقش فيها حول هذه الربطة، كان ماكس يشكرنى بحرارة حتى أننى أحسست فى النهاية أنه إنما يريدنى أن أفهم أننى لم أعطه بما فيه الكفاية!

ولقد تذكرت فجأة أنه توجد عندى قبعة مهملة لا أستعملها ، وهى قبعة أجمل بكثير من القبعة التى يرتديها ، فاحضرتها له ، ووضعتها على رأسى لا قوم بتجربتها أمامه وأوضح له طريقة ارتدائها ، وقلت له :

— هكذا ياماكس .. اجعل حافتها مائلة إلى أسفل ، وشدها على عينيك بقوة ، ثم أطبقها قليلا بهذا الشكل .

فقال :

— يالها من قبعة جميلة حقاً وأنت تضعها فوق رأسك !

وأحسست بالندم لأننى سأفترق عنها . على أننى أعطيتها لماكس ليقوم بتجربتها ، واستشعرت وهو يضعها فوق رأسه أنه غير متحمس لأخذها، وأنه يجادل نفسه إن كانت القبعة ذات قيمة يستحق أن يأخذها من أجلها. على أننى أعتبرت الموضوع منتهياً من ناحيتى، فأخذت ماكس

إلى الحمام ، ووضعت القبعة بسرعة على عينه اليمنى ، وأطبقت رأسها بطريقة تدعو إلى السخرية ، وكلى ثقة أن هذه الطريقة ستجعل ماكس يبدو للناس كما لو كان قواداً أو أحد لاعبي القمار ؛ وعلى أى حال ، فلقد وضع ماكس فوق رأسه قبعته التى تنثنى من الطرف بطريقة مقززة ، وأدركت من ذلك انه يفضل هذه القبعة عن الأخرى التى أعطيتها له لأنها تجعله يبدو قبيح المنظر ، ولم أجد بدا من امتداح منظرها القبيح ، فقلت له :

— فعلا يا ماكس .. إن هذه القبعة أصلح من الأخرى بكثير .

وأخذت أبعده فى الحديث عن القبعة الأخرى ، على أنه قد واتتنى الفرصة وهو يتطلع إلى نفسه مزهواً فى المرآة ، لأفتح الربطة ، وأخرج منها قميصا وبعض المناديل وأعدت وضعها فى الدرج ثم قمت بتغليف الربطة من جديد . وغادرنا المنزل ، وتوجهنا إلى محل بقالة يقع فى نهاية الطريق؛ وطلبت من السيدة هناك أن تغلف لنا الربطة باحكام ، فلم تمانع فى ذلك غير أن ماكس لم يفكر فى ان يشكرها على عملها ، ولقد برر لى ذلك بقوله أنها مستعدة لأن تقدم لى كافة الخدمات بالطبع طالما أننى أبتاع منها كل ما يلزمنى من أنواع البقالة .

ثم انطلقنا إلى ميدان سان ميشيل ، وعرجنا على طريق الآرب حيث يقع الفندق الذى يقيم فيه ماكس .

ويزحف علينا الليل ذلك الوقت . وتبدأ الإعلانات الكهربائية

فى التوهج على الحوائط وتصبغها بلون أبيض ناصع كالحليب .

ويمتلىء قلبى بالسلام مع العالم ..

هذه هى الساعة التى تترك فيها باريس آثارها الموسيقيـة على روح كل إنسان . فى كل خطوة نخطوها لا ترى عيوننا إلا بدعة جديدة من بدع الفن المعمارى . فالبيوت تبدو فى الحقيقة متشابكة مع بعضها البعض كالنوتة الموسيقية ، وتوحى إليك برقصات المنويت الجذابة ، والفـالس الهادىء ، والمازوركا البولندية ، والأنغام الحالمة .

ونتعمق فى المبانى والأحياء القديمة . نترك سان ميشيل إلى سان سفرين ، ونسير فى الطرق الضيقة الملتوية التى كان يرتادها دانتى ، ودا فنشي ، وأخذت أبين لماكس مدى عظمة الأماكن المجـاورة لمسكنه ، وروعة العلاقات الـكثيرة الموجودة حوله ، وحدثته عن أسلافه دانتى ، ودافنشي ، فسألنى :

— ومتى كان ذلك باميللر ؟

فقلت له :

— حوالى القرن الرابع عشر يا ماكس .

ويصيح ماكس قائلا :

— تماما ياميللر .. تماما .. لم يكن هناك خير على وجه الأرض قبل ذلك التاريخ ، ولم يعد هناك خير على وجه الأرض بعد ذلك التاريخ ، وقضى الأمر .

وبعد قليل يعود ماكس ليسألني :

— على أى حال ياميللر ، إن كان هذا الحى يروق لك ، فأنا على استعداد لأن استبدل معك مسكني ؟

* * *

ونرتقي درجات السلم إلى حيث يقيم ماكس بغرفة بالطابق العلوى من الفندق. ودرجات السلم مغطاة بالسجاجيد حتى الطابق الثالث ، وما دون ذلك فمغطاة بطبقة من الشمع تجعل المرء ينزلق وينكب على وجهه. عند كل طابق توجد لافطة تنهى المستأجرين عن القيام بأعمال الطهى أو الغسيل داخل الغرف . كما توجد لافطة عند كل طابق تشير إلى دورة المياه .

وعندما تتسلق درجات السلم ، تستطيع أن تمد يدك من النافذة وتصافح جارك ، فالحجرات ملتصقة ببعض ، ولا يفصل بينها شيء .

والغرفة التي يقيم فيها ماكس غرفة صغيرة وضيقة وإن كانت نظيفة. فى ركن منها يوجد صنبور للمياه، وفى ركن آخر يوجد كومودينو، وعلى الحائط توجد بعض المسامير التى تستخدم كشاجب للملابس ، وفوق السرير يتدلى مصباح كهربائى باهت اللون . ويدفع ماكس إيجاراً لهذه الغرفة قدره سبعة وثلاثون فرنكا فى الأسبوع، وهو مبلغ لا بأس به، وباستطاعته أن يستأجر غرفة أخرى بإيجار قدره ثمانية وعشرون فرنكا فى

الأسبوع ، ولكن مثل هذه الغرف غالباً ما تكون بدون صنبور مياه .

وتركت ماكس يسب ويلعن من جراء ضيق الغرفة، وذهبت ناحية النافذة ، وأخذت أتطلع منها . ولقد شدني كثيراً منظر امرأة شابة كانت تنحني بجزعها فوق حافة الشرفة التي تطل منها ، وقد فتحت عيناها في بلاهة ، وأخذت تحملق في الحائط المواجه لها الذي لم تكن به أي شرفات . وكان يوجد على مقربة منها بعض أصص الورد الصغيرة ، وتتدلى من خطاف حديدي أسفل الشرفة قطع القماش التي تستخدم في تنظيف المواعين . وبدت لي السيدة وكأنها في حالة انتشاء جم ، حتى أنها لم تحس أنني أقف بجانبها وارقبها عن كثب . ولعلها تحس في غرفتها بالراحة والسلام على الرغم من أنها لم تكن بأرحب من الغرفة التي تقف فيها الآن . وهي بلا شك ترقب بشغف هبوط الظلام حتى تنزلق إلى الطريق . وهي وإن كانت لا تعرف شيئاً عن مجد أسلافها العظماء ، إلا أنها تحمل في دمائها بكل تأكيد آثار الماضي وتواصل به حاضرها الكئيب دون مشقة أو تعب ! .

وبحلول الليل ، يتدفق الدم حاراً في عروقي ، وينتابني إحساس قدسي حول الغرفة التي أقف فيها . بعد أن أترك ماكس الليلة ، ربما يلتقي بكتابي فوق الوسادة وينكب على قراءته بعيون مثقلة . لقد أهديت له الكتاب بكلمة قلت فيها : « إلى صديقي ماكس . . . إلى الرجل

الوحيد فى باريس الذى يعلم فعلا حقيقة المعاناة والألم . . . » وكان يراودنى إحساس غريب وأنا أخط هذه الكلمات أن كتابى قد فرض عليه أن يسافر فى رحلة بعيدة . . رحلة غامضة شاذة ، ولم أكن قلقاً على ماكس بتدر ما كنت قلقاً على أولئك الذين قد تصيبهم الدهشة من جراء قراءة هذه الكلمات . ورأيت كتابى ملقى بالقرب من نهر السين . . صفحاته ممزقة . . آثار أصابع الإبهام واضحة عليه . . خطوط هنا وخطوط هناك أسفل الكلمات . رسومات على الهوامش . . بقع من القهوة تلطخ صفحاته، ورجل يدفع به إلى جيب معطفه الثقيل . رحلة غامضة . . أرض مجهولة. عند خط الإستواء يبعث إلى رجل برسالة يقول لى فيها : « لقد رأيت كتابكم ملقى فوق منضدة مزادات تحت لوح من الزجاج ، وكان الدلال يطرق فوقه بعصاه فى عنف » .

وتمر السنين ، ويتغير وجه الدنيا ويتبدل ، ولكننا نعود إلى الغرفة الضيقة حيث مازال يقف فيها الرجلان . الغرفة أشبه بغرفتنا ، إن لم تكن هى بالفعل . فى الغرفة المجاورة توجد امرأة شابة تستند بجزعها فوق حافة النافذة ، وأصص من الورد منتشرة أمامها ، ومن الخطاف الحديدى تتدلى أقمشة تنظيف المواعين ، وأحد الرجلين محطم تماما حتى الموت ، والغرفة التى يعيش فيها غرفة ضيقة للغاية ، أشبه بزنزانة سجن ، وهو يتوقع أن يجود عليه الليل بالراحة والطمأنينة ، وإن لم يجد عليه الليل بالراحة والطمأنينة ، فليمنحه الأمل على الأقل ، ولكن هيهات

وهيهات . ها هو يمسك بالكتاب الذى أعطاه له الرجل الآخر ويحاول أن يستمد لنفسه الشجاعة منه ، ولكنه لا يستطيع ، فيلقى بجسده المنهك فوق الفراش ويتألم بشدة . على أن الأيام والليالى ستطويه كما تطوى الكوارث والمصائب .

وإذ أقف فى هذه الغرفة بجوار ذلك الرجل الذى استعصت عليه كل أنواع المساعدة ، لا أجد إلا خبرتى بالعالم وبالناس وبالرجال تصرخ فى قسوة وفى صمت . الموت . . الموت . . لا شىء غير الموت . . بالموت وحده يستطيع هذا الرجل التخلص من كل آلامه وأحزانه ، ولم يعد فى الإمكان عمل أى شىء ، بل إن كل شىء أصبح ، على حد قول بوربس ، عقيما وغير مجد !

* * *

والأضواء فى الخارج قوية ، وطريق الآرب غاص بالناس . .

وعلى جانبى الطريق بعض العمال يقومون بإنشاء مظلة . أحدهم اعتلى سلماً فى منتصف الطريق . بنطلونه واسع كالزكيبة . . ينظر إلى زميل له ويطلب منه أن يعطيه بعض العدد اليدوية . على الناحية الأخرى من الطريق ، يوجد مطعم يونانى صغير ، شرفاته تزينها إصص التراكونا، والشارع كله يبدو فى حالة من الزيف والخديعة . أناس مرضى ، وأناس فقراء ، ومن تحت أقدامنا سراديب مكتظة بعظام الموتى ! .

ونأخذ جولة حول المبنى .

ويحاول ماكس أن يعثر على مطعم مناسب نتناول فيه وجبة بمبلغ محدد لا يزيد عن خمسة فرنكات ونصف . وعندما أظهرت لماكس عدم موافقتي على هذا الاقتراح ، أشار بيده وهو فى غاية الإرتباك نحو مطعم دى لوكس يقدم وجبة غذائية فى حدود ثمانية عشر فرنكا ، وأحسست أن ماكس قد فقد كل إحساسه بقيم الحياة !

وعدنا مرة ثانية إلى المطعم اليونانى، ووقفنا ندرس قائمة الطعام الملصقة بواجهة المطعم الزجاجية ، وكان ماكس يخشى أن تكون الأسعار مرتفعة . ولقد حانت منى إلتفاتة إلى الداخل ، فراعنى أن أرى المكان غاصاً بعدد كبير من البغايا والعمال ، وقد ترك الرجال قبعاتهم فوق رؤوسهم. كانت أرضيه المطعم مغطاة بطبقة من نوشارة الخشب ، وكانت الأضواء خافتة ، مما جعلنى أحس بأنه المطعم المناسب فعلا للحصول على وجبة شهية من الطعام .

وأجذب ماكس من ذراعه، وندخل المطعم.

وتدلف من باب المطعم فى هذه الأثناء بغى تترنح سكراً وتسلك أسنانها من فضلات الطعام ، ولقد شيعتها بنظرى حتى التقت بزميلة لها كانت تنتظرها خارج المطعم مستندة على عامود نور، ثم اتجهتا معاً إلى سان سيفرن، وأعتقد أنهما ذاهبتان لتلقيان بنفسيهما وسط حلبة الرقص أمام باب الكنيسة ، وترقصان على أنغام الأوكورديون ، ولابد أن دانتى قد فعل

نفس الشىء ذات يوم — من أجل الحصول على كأس بالطبع !

وكان من الواضح أن كل مظاهر العصور الوسطى موجودة خارج باب المطعم ، ولم أكن قد تخلصت منها تماما ، فقد خطوت خطوة داخل المطعم وأبقيت الأخرى خارجه .

ولم يكن ماكس مهتما بما يأكل أو يشرب ، وإنما كان اهتمامه منصباً حول نقطة واحدة وهى أن لا يكون سبباً فى تغريمى مبلغاً كبيراً من المال . وكنت فى الواقع أهدف إلى الزوغان منه فور الإنتهاء من تناول الطعام لأنه كانت لدى رغبة فى التجول فى الأحياء المجاورة ، وسأقول له أننى مشغول ، وأننى مضطر للقيام ببعض الأعمال ، وسيسعده بالطبع أن يسمع منى ذلك .

وبدأ ماكس يدرس قائمة الطعام ، وأحسست بصلعته تتوهج تحت الأضواء الخافتة ، ولا شك أنه لو كان ماكس يعيش فى القرن الرابع عشر ، لكان قد أصبح نجاراً أو بناءاً ، واننى لأخاله الآن واقفاً على السقالة وممسكا بالمعول بين يديه .

وكل شىء فى المطعم يوحى بالجو اليونانى . الزبائن يونانيون ، وأصحاب المطعم يونانيون ، والأطعمة التى تقدم فيه أطعمة يونانية ، واللغة المتبادلة فيه هى اللغة اليونانية أيضاً .

وطلبت لنفسى طبقاً من الباذنجان المطبوخ بورق العنب ، وهو عبارة عن فطيرة من الباذنجان بصلصة اللحم الضانى ، ولعله الطبق

الوحيد الذى يجيد اليونانيون صنعه .

ولقد ظل ماكس صامتاً لا يتكلم أو ينبت ببنت شفة حتى فرغ من تناول نصف طعامه ، وحينئذ انفجر فى الكلام بلا مقدمات ، ودون أن أعرف سبباً واضحاً يدعوه إلى ذلك

وبقدر ما استطيع أن أذكر الآن ، كان ماكس فى زيارة لسيدة فرنسية عندما وجد نفسه يجهش بالبكاء دون سبب من الأسباب .

وياله من بكاء ! .

حاول مرات ومرات أن يكف عن البكاء ، ولكن محاولاته كانت تبوء بالفشل دائماً.

ألقى برأسه فوق المنضدة ، وظل يبكى بالساعات كطفل صغير يائس . وفكرت السيدة الفرنسية ، وقد تملكها الذعر مما رأت ، أن تتصل بطبيب لنجدتها، وانتاب ماكس شعور بالخجل من نفسه.

آه . . لقد تذكر ماكس سبب بكائه الآن . .

ذهب لزيارة السيدة الفرنسية وهو فى غاية الجوع، ثم حان موعد الغذاء ، فلم يستطع ماكس أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك ، فهب واقفاً على قدميه ، وطلب من السيدة الفرنسية أن تقرضه بعض النقود ، فأجابته السيدة لطلبه فى الحال ، وهنا أصابه الذعر مما حدث ، والمصيبة أنه حدث من سيدة فرنسية !

كم أنت بائس وشقى يا ماكس ! !

كيف تسول إليك نفسك أن تمد يدك إلى سيدة فرنسية فقيرة وتأخذ منها دراهم قليلة وأنت الرجل القوى الغنى ؟

كيف يحدث ذلك يا رجل ؟ وأين ذهب كبرياؤك ؟ وماذا بقى لك فى الوجود إذا كنت تمد يدك إلى امرأة ؟

ومن هنا كانت البداية .

وكلما تذكر ماكس هذه القصة ، لا تمر دقيقة واحدة حتى تسيل دموعه غزيرة على خديه ، ويلقى برأسه فوق المنضدة ، ويظل يبكى وينتحب كما فعل تماماً أثناء زيارته للسيدة الفرنسية .

وكان المنظر رهيباً بالفعل !

وبعد قليل استعاد ماكس هدوءه ، ثم قال لى :

— أتدرى ياميللر انه يمكنك أن تطعننى بخنجر أو أن تفعل بى ما تشاء ، ولكنك لا تستطيع ابداً أن تمنعنى من البكاء . لا تظن أننى أبكى لسبب أو لآخر . إننى أبكى لمجرد البكاء ، وهو شعور لا استطيع التغلب عليه أبداً .

ويتوقف عن الكلام لحظه ، ثم يقول :

-- هل تعتقد أننى مصاب بتوتر فى الأعصاب حقاً ؟ لقد قالوا لى أن مرضى عبارة عن أزمة عصبية . هذا يعنى الإنسحاق ياميللر ، أليس كذلك ؟

ومرة ثانية يتذكر ماكس طبيب الأسنان الذى قال له أن أمره

لا شيء ، وأن كل ما يعانى منه هو اضطراب فى الأعصاب. كيف توصل طبيب أسنان أن يكتشف ذلك؟ هذا هو اللغز الذي يحير ما كس، والخوف كل الخوف، أن تكون هذه الاضطرابات بداية لأمور أسوأ وألعن . وهو يتساءل إن كان ذلك سيؤدى فى نهاية المطاف إلى الجنون مثلا ، إنه لا يريد ان يعرف إلا الحقيقة ، ولا شيء غير الحقيقة.

ولا أدرى بحق الشيطان بماذا أجيب عليه . هل أقول له أن الأمر لا شيء ، ولا يعدو عن كونه توتراً فى الأعصاب ، وأن هذا لايؤدى إلى الجنون ؟

— كل شيء سيزول يا ما كس بمجرد أن تقف على قدميك .

— ولكن لا يجب أن أبقى وحيداً طول الوقت يا ميللر .

آه .. فهمت الآن ، وعلى أن آخذ حذرى . إن ما كس سيطلب منى أن أذهب لزيارته بين الحين والآخر ، ولذا أستفسر منه :

— هل تريد نقوداً يا ما كس ؟

— لا .. لا .. لا . أقسم لك يا ميللر أننى لا أريد نقوداً على الاطلاق. كل ما أريده هو ألا أعيش وحيداً طول الوقت .

— هون عليك يا ما كس.. إننى سآتى دائماً لزيارتك برفقه بوريس، وسنحاول بقدر المستطاع أن نبعد عنك شبح الهم .

ولكن ما كس لا يعيرنى انتباه :

— أحيانا ياميللر عندما أعود إلى غرفتى بالفندق .. أحس بالعرق ينساب فوق وجهى كما لو كان قناعا أرتديه ، ولم أعد أدرى سبب ذلك .

— ليس فى الأمر شىء يا ماكس . أنت قلق بعض الشيء ، ثم أنك تتناول كمية كبيرة من الماء ، أليس كذلك ؟

ويهز رأسه على الفور موافقاً ، ولكنه بعد قليل يشيعنى بنظرة ملوءها الفزع والدهشة ، ويسألنى :

— بربك كيف عرفت ذلك ؟ كيف عرفت أننى أحس بالعطش طول الوقت ؟ حقاً يا ميللر إننى أجرى إلى الصنبور باستمرار لاشرب ، وما عدت أعرف حقيقة أمرى بالضبط !

وبعد برهة يسألنى :

— أحقا ما يقولون ياميللر ؟ يقولون أنك إذا مرضت هنا فإنهم يقتلونك على الفور . قالوا لى أن من يمرض وليس له أهل فى البلدة فإنهم يقتلونه خاصة إذا لم تكن معه نقود . هذا الموضوع يشغلنى باستمرار ، وأتساءل عما قد يحدث لى لو أننى مرضت فى يوم من الأيام . اللهم ارحمنى ولا تفقدنى الصواب. إن هذه القصص الرهيبة التى سمعتها عن الفرنسيين تدخل الرعب فى قلبى . إنهم سيتركوننى أموت أمام أعينهم دون أن يفعلوا من أجلى شيئاً . إنهم أناس خلت من قلوبهم الرحمة . أصبح المال هو كل شيء . يارب لا تجعلنى يوما أتذلل لهؤلاء الفرنسيين طلبا للرحمة . إننى على الأقل أحمل هوية الآن ،ولكن الأوغاد جعلونى سائحا. بالله كيف يتوقعون منى أن أعيش ؟ أحيانا أجلس لا راقب الناس وهم يجيئون ويروحون وكل واحد منهم له عمل يؤديه إلا أنا. أنا الوحيدالذى

يجلس طوال الوقت بلا عمل على الاطلاق . كنت أسأل نفسى أحياناً : ماذا جرى لك يا ماكس ؟ لماذا أنت هكذا عاطل ؟ قد لا تدرك يا ميللر أن الجلوس طول الوقت بلا عمل شىء قاتل بالفعل . لقد كنت أنا أول من يرسلون فى طلبه حينما يشتد الإقبال على الأيدى العاملة فى موسم العمل . آه من الفرنسيين ! إنهم يعرفون من هو ماكس ، ولكنهم للأسف لا يعرفون شيئاً عن الكى . إن ماكس هو الذى علمهم حقيقة الكى . كانوا يعطوننى فى الساعة اثنين من الفرنكات لأنه ليس لى الحق فى العمل . أترى كيف يستطيعون استغلال رجلا أبيض فى بلد ينضح بالقمل ؟ لقد جعلوا منه متسولاً !

وبعد فترة صمت قليلة ، يستطرد ماكس قائلاً :

كنت تحدثنى يا ميللر عن جنوب أمريكا ، وقلت لى أنه من الممكن أن أسافر إلى هناك وأن أبدأ حياتى من جديد . حسناً يا ميللر .. إننى لم أتخطى بعد مرحلة الشباب ، وغاية ما فى الأمر أن معنوياتى محطمة خاصة وقد قضيت عشرين عاماً أقوم فيها بكى الملابس . أرى أننى عما قريب سأصبح كهلا. لقد اندثرت حرفتى بالفعل ، ولم يعد أمامى أمل إلا أن أؤدى بعض الأعمال الخفيفة التى لا تعتمد على اليدين ، ولعل هذا هو سر تعلمى الفرنسية حتى أقوم بأعمال الترجمة. إن بعد عشرين عاماً من الإمساك بالمكواة لا تجد أصابعك على طبيعتها كما كانت من قبل ، وإنما تحس

بالامتعاض من نفسك حتى لمجرد التفكير فى ذلك . لقد ظللت عشرين عاماً واقفاً طول الوقت فوق مكواة حامية تنبعث منها رائحة لعينة . مجرد تفكيرى فى هذه الرائحة تجعلنى أحس برغبة فى القئ . هل تظن أنه من الصواب أن يظل الإنسان واقفاً على مكواة حامية طول اليوم ؟ لماذا إذن خلق الله الخضرة والأشجار ؟ ألم يعد لماكس أى حق فى الاستمتاع بهذه الأشياء أيضاً ؟ أيجب أن نبقى عبيداً طول أيام حياتنا ؟ أيجب أن نبقى عبيداً للمال ، وأن نعمل فى سبيل الحصول على المال ؟

* * *

فرغنا الآن من تناول القهوة بشرفة إحدى المقاهى .

أحاول أن أتملص من ماكس .

إننا لم نستقر على شئ بعد ، ولكننى وعدته بأن أكون على إتصال به دائماً .

* * *

أسير الآن بمفردى فى البوليفار بالقرب من سان ميشيل بعد أن مررت بحديقة اللوكسمبرج .

من المحتمل أن ماكس مازال جالساً حتى الآن بالمقهى ، فقد طلبت منه أن يبقى بعض الوقت بدلا من العودة إلى غرفته ، ولكننى واثق تماماً أنه لن يطول به الجلوس ، ولاشك أنه قد غادر مكانه الآن وذهب يتجول هنا وهناك . وعلى أى الحالات ، فإن التجول خير من لا شئ،

ولعله خير للإنسان أن يتجول ليتسول لنفسه قليلاً من الدراهم يعيش منها على أن يجلس بلا عمل . ونحن فى فصل صيف الآن ، وهناك بعض السواح الأمريكان فى البلد ، وإن كانت المشكلة أن الأمريكيين لم يعد معهم نقودا كثيرة، فنحن ليس فى عام ١٩٢٧ أو عام ١٩٢٨ حينما كانت تمتلىء جيوبهم بالنقود مثل القمل فى شعر الرأس ، فالأمريكيون يفضلون الآن قضاء وقتاً طيباً فى حدود مبلغ لا يزيد عن خمسين فرنك .

* * *

سكون مطبق كالموت يخيم على الاوبزرفاتوار .

بالقرب من حائط مبنى متهدم ، تقف مومس بمفردها ، ويبدو عليها التراخى والكسل .. لا تقوى على القيام بأى حركة تجذب بها الزبائن . مومس يائسة..مومس محطمة تتكدس تحت قدميها أكوام من النفايات المبعثرة . . أوراق الأشجار المتساقطة . . أوراق الصحف القديمة . . علب صفيح فارغة . . فروع أشجار مكسرة . . أعقاب سجائر ، وما شابه ذلك . وتبدو لى وكأنها مستعدة لأن تلقى بنفسها وسط هذه النفايات ، وتظل تتمرمغ فيها وليكن يوماً من أيام حياتها !

* * *

طريق سان جاك طريق طويل محفوف بالأكواخ الخشبية التى تبدو كفتارين العرض . من داخل هذه الأكواخ الصغيرة تنبعث أصوات الأمريكان عبر الأثير . أصوات رقيعة أشبه بالهلوسة . الظلام الدامس

ينتشر داخل الأكواخ . والمشهد يجمع بين مظاهر العصور الوسطى ومظاهر العصر الحديث . واحد من قدماء المحاربين يدفع نفسه فوق مقعد ذو عجل . عجازيه بجانبيه . من خلفه تقف سيارة ليموزين فى إنتظار إنهاء إجراءات الجمارك حتى تنطلق بأقصى سرعتها . أجهزة الراديو على مختلف أنواعها ثبتت مؤشراتها على موجة واحدة تذيع تلك الأغنية الأمريكية القذرة : « إننى أؤمن بالمعجزات » .

يا يسوع المسيح ! !

معجزات .. معجزات .. معجزات .

إن المسيح نفسه ما كان يستطيع أن يأتى بمعجزة واحدة فى هذا العصر !

« خذوا كلوا واشربوا . . هذا هو جسدى الممزق أعطيه لكم » .

وفى هـــــذه الذكرى الأليمة ، تعرض المحلات الدينية صلباناً رخيصة الثمن .

يهودى مسكين يصلب فوق خشبة الصليب وفى يديه وقدميه تدق المسامير من أجل أن ننال الحياة الأبدية . ونحن لم ننل الحياة الأبدية بعد ، على الرغم من وجود الإطارات الكاوتشوك ، والمبانى الخرسانية ، وعلى الرغم من اكتشاف المذياع ومكبرات الصوت ، ومن وجود بغايا بأرجل خشبية ، ومن توفر السلع وتكدسها حتى أنه لم يعد هناك أى عمل يقوم به عاطل واحد !

* * *

« . . . . أنا خائف يا ميللر من البقاء وحدى طول الوقت » .

عندما يدخل ما كس غرفته بالطابق السادس من الفندق ، يبدأ العرق يسيل منه « كما لو كان قناعاً يضعه فوق وجهه ! »

« . . . لا شيء يجعلنى أبكى . . ولا حتى إذا طعنتنى بخنجر . إنى أبكى للاشىء . هل تعتقد يا ميللر أننى مصاب بالجنون ؟ إننى سأظل أبكى وأبكى ولن أكف عن البكاء يوماً » .

أحقاً ما كس مجنون ؟

يا يسوع ! !

أنصت يا ما كس . .

إن العالم كله مجنون . .

أنت مجنون . .

أنا مجنون . .

كل إنسان فى هذه الدنيا مجنون . .

والعالم كله ينضح قيحاً وألماً !

والآن هل تسمح لى ياما كس أن أسألك إن كنت قد ملأت ساعتك ؟ أعلم أنك مازلت تحمل واحدة ولقد رأيت سلسلتها مدلاة من جيب صديرى قميصك . أعلم أنك تتألم من معرفة الوقت . ولكن إذا أردته فعلا أن تعرف الوقت الآن ، فأنا على استعداد لأن أحدده لك بالدقيقة والثانية . . ليكن معلوماً لديك أن الرقت الآن خمسة دقائق تماماً قبل

أن ينسدل الستار على الفصل الأخير • عندما تدق الساعة الثانية عشر عند منتصف الليل ، ستكون هذه علامة النهاية ، وحينئذ سيكون في وسعك أن تجرى إلى الشارع ، وأن تخلع ملابسك كلها ، وأن تلقى بها فى الطريق ، ولن تكون وحدك الذى يفعل ذلك ، وإنما سينطلق معك كل فرد ، وسيشعر الجميع أنهم قد ولدوا من جديد ، وهذا هو السبب فى أنهم كانوا يقيمون المظلة هذا المساء . فقد كانوا يستعدون لوقوع المعجزة • حتى السيدة الشابة التى كانت تطل من النافذة بجوار غرفتك •• هل تذكرها يا ماكس ؟ لقد كانت هى الأخرى تحلم بالفجر ، وكانت تحلم ببهاء جسدها عندما تندس وسط الجموع وقد تجردت من ملابسها تماماً •

منتصف الليل

لم يحدث شيء •

الساعة الآن الثامنة صباحاً ، والدنيا تمطر •

يوم مثل كل الأيام •

فى الظهر ، وصل ساعى البريد •

ناولنى خطاباً • بدى لى الخط مألوفاً • ففضضته على عجل ولقد صح ما توقعت • لقد كان الخطاب من ماكس :

« يا صديقاى العزيزان : ميللر وبوريس ••

أكتب لكما هذه الكلمات القليلة وقد استيقظت من نومى فى الثالثة صباحاً . لم أعد أستطيع النوم . أعصابى متوترة جداً .

أبكى طول الوقت ولا أستطيع أن أكف عن ذلك. أحس دائماً كما لو أن موسيقى يتردد صداها فى أذناى ، ولكنها فى الواقع صرخات تجلجل سكون الليل . انهال أحد القوادين بالضرب على رأس بغى . . وياله من صوت مؤلم لا يطيقه بشر ! .

المياه تنساب من الصنبور فوق الحوض . عيناى لا تغفلان أبداً . اقرأ كتابك يا ميللر لأحاول أن أهدئ من روع نفسى . كتاب مسلى بحق ، ولكن صبرى قد نفذ . أرقب طلوع شمس النهار حتى أجرى إلى الطريق .

طول الليل وأنا أعانى . لم أكن رغماً عن ذلك جوعاناً . أصبحت أخشى أن يقع لى مكروه لا أعرف كنهه ، وأصبحت لا أدرى ماذا حدث لى بالضبط . تجدنى كثير الكلام مع نفسى . لا أستطيع أن أضبط أعصابى . إنى أطلب منك ياميللر أن تكف عن مساعدتى . دعنا نتحدث قليلا مع بعض .

هل تظن أننى طفل ؟

هل تتخيل أننى فقدت الشجاعة وأننى أكاد أفقد عقلى أيضاً؟

لا تظن يا عزيزى ميللر أننى محتاج إليك مادياً . أبداً . اننى محتاج فقط إلى أن أتحدث إليك، وأن أتحدث إلى بوريس . لست محتاجاً إلى المال ،فيكفينى مساعدتك المعنوية .

أنا خائف من غرفتى .

أنا خائف أن أنام لوحدى .

أهذه نهاية المطاف فعلا ؟ إن الأمر يبدو كذلك . . لقد لعبت بآخر ورقــة فى يدى . . إننى قادر على الإنجاب ، وأنا أرقب الصباح حتى أهرع إلى الشارع .

أتضرع إلى الله عز وجل أن تمر هذه الليلة الرهيبة بسرعة . انها ليلة رهيبة بالفعل كلها ألم وكلها كرب ، ولم أعد أطيق جوها أو حرارتها .

لا تظن أننى سكران . إنى أكتب لك هذه الكلمات لمجرد أننى أريد أن أتسلى معك وحتى أضيع الوقت ، وهــــذا يعطينى الإحساس بأننى أتكلم معك ، وبالتالى أرتاح . . أرتاح على الرغم من أننى أخاف من البقاء بمفردى فى الحجرة .

ما الخبر يا ميللر ؟

المطر ينهمر فى الخارج الآن . أطل من نافذة غرفتى . أحس بشىء من التحسن . أخال أن الأمطار تهمس فى أذنى ، وإن كان الصباح لن يأتى .

أخشى إذا مرضت يا ميللر أن يفتك بى الفرنسيون .

إننى غريب كما تعلم عن هذا البلد . . فهل تظن أن ذلك حقيقى ؟ قالوا إننى إذا كنت غريباً وليس لى أهل يرعوننى ، فإنهم سيفتكون بى على الفور بدلا من أن يقدموا لى العلاج

حتى وإن كان هناك أمل فى الشفاء .

أخشى أن لا يقتلنى الفرنسيون ، وبذا لا أرى الفجر على الإطلاق .

يا إلهى !! .

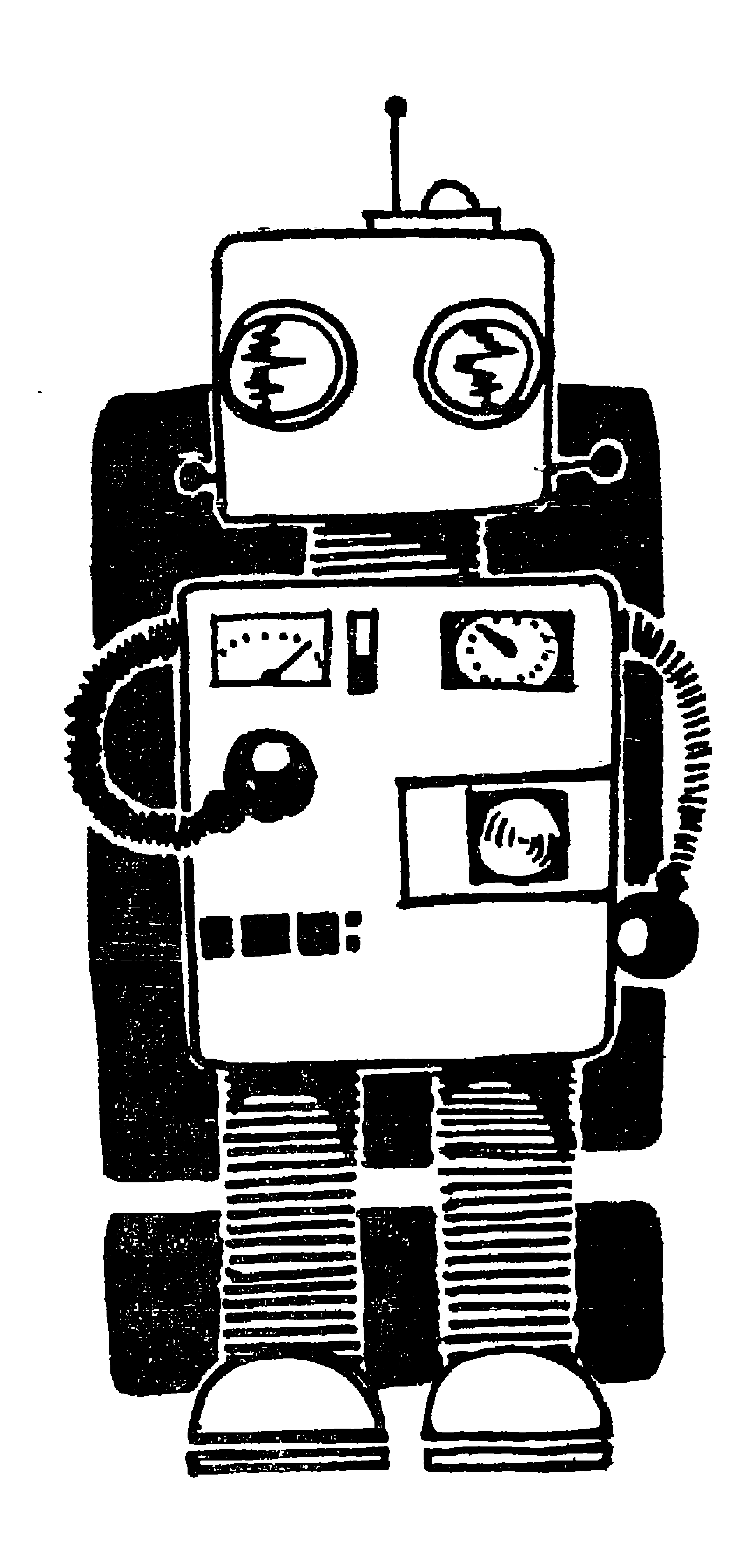
إنى محتاج إلى أن أكون شجاعاً ، وأن أحكم ضبط نفسى .

رغبتى فى الخروج الآن إلى الشارع قد فترت . ربما إذا خرجت يشتبه فى أمرى رجل البوليس ويحرر بيانات خاطئة عنى . لو كنت واثقاً من العكس ، لكنت قد خرجت لأننى فى الواقع لا أطيق البقاء هنا أكثر من ذلك .

ميللر .. إننى خائف دائما . إن الخوف يطاردنى ليل نهار . هل أستطيع أن أراك ؟ أريد أن أتحدث إليك ولو قليلا . لا أريد منك أى نقود . إننى أكاد أجن !

المخلص ماكس

بيسكو دربيلي



لا أدرى حتى الآن كيف تمكنت فى النهاية من إنجاز عمل مثل رواية « الضفيرة ». كانت تحيط بى المشاكل من كل جانب.. مشاكل منزلية ، ومشاكل مالية . والحى الذى كنت أعيش فيه حى قذر ، والحجرة التى كنت أشغلها أثناء عملى بهذه الرواية كانت حجرة ضيقة للغاية ، شديدة البرودة ، وشديدة الحرارة . ومشاكل أخرى من هذا القبيل . وكانت ابنتى الصغيرة «فالنتين» تأتى إلى نافذتى من وقت لآخر، وتقرع بيدها فوق اللوح الزجاجى .. وتطلب منى أن أخرج للعب معها ، فكنت أدعوها أحياناً إلى مكتبى حيث أقوم بتمثيل دور الطبيب أو المحلل النفسانى ، وفقاً لظروف الحالة . وكنا ننخرط فى دردشة طويلة عن آلامها الوهمية فى جو يشع بالفرح والسعادة ، وكانت هذه الجلسات هى الجلسات الوحيدة التى كنت أهرب فيها من الكتابة ، وأعطى لنفسى قليلا من الراحة ، وإن كان ذلك لم يمنعنى فى النهاية من كتابة فصول طويلة من المرح والخيال الخصب .

أما الشخصية التى أوحت إلى بكتابة قصة « بيكودربيى » فقد كان رجلا إيطالياً ، إعتاد أن يأتى من وقت لآخر إلى الحانة التى افتتحتها لبيع الخمور فى القرية . وأذكر أن ذلك كان ما بين عامى ١٩٢٥

و ١٩٢٦ • وهو متحدث لبق ، صاحب نكتة ، ساخر ، مثقف ، واسع الأفق ، سريع البديهة • ومن الطبيعي أن لا يكون هذا الرجل هو الشخص الذي روى على مسمعنا هذه القصة ، وإن كان ذلك لا يعني أنه لم يكن في استطاعته أن يفعل ذلك ، فهي من طباعه ، ومن خصائصه الأدبية والفنية • ولم يكن دوري الذي قمت به سوى تسجيل ما سمعته من « الصوت » كلمة كلمة دون أدنى تغيير •

* * *

القصص والحواديت التي كان يرويها لنا كاتشي كاتشي • • كانت كلها تدور حول مدينه فلورنسا العظيمة ، وعن شعبها المجيد • وهي قصص خيالية ، من صميم اختراعه ، كان يقصها علينا وقد أضفى على نفسه هيبة أهل فلورنسا ولعلنا ندهش قليلا إذا عرفنا أنه لم يرى إيطاليا منذ بلغ الثانية من عمره • • كان يعيد على مسمعنا بعض منها بعد أن يدخل عليها قليل من التغييرات والتعديلات • • على أن الأمر كله كان يرتهن بحالة المستمعين ، ومدى استيعابهم للقصة ، وتشوقهم لمواصلة الإستماع إليها •

ومن القصص الطريفة التي رواها لنا كاتشي كاتشي ، قصة إنسان آلي عاش في القرن الثاني عشر ، اخترعه أحد علماء العصور الوسطى ، لم يتمكن كاتشي كاتشي من تحديد اسمه على وجه الدقة ، وإنما اكتفى بأن وصف لنا هذه الأعجوبة — وهو يصر دائماً على

أنها مخنثة النوع — بأنها نوع من الخدم الذين لا يكلون العمل أو يملونه ، ويتمتعون بقدرة خارقة على أداء كافة الأعمال والمتطلبات المنزلية التي توكل إليهم بما في ذلك وسائل اللهو والترفيه • ولقد طلق عليه العالم « اسم بيكودريبي » •

ولم يترك كاتشي كاتشي القصة تجرى على سجيتها ، وإنما كان بين الحين والآخر يقوم بتجمليها وتحليتها كلما استطرد في سردها علينا .. فهو يقول لنا أن بيكو اكتسب لنفسه من القوى والصفات ما جعله يسمو — على أقل تقدير — فوق كل مراتب العلو والإستحسان .

تعلم الخادم الآلى تقليد أصوات البشر . وبدأ صاحبه يعلمه بعض الفنون والعلوم ، وهى كلها فنون كانت تعود على صاحبه بالنفع العظيم .

تعلم بيكو سرعة البديهة ، وتذكر الموازين والمقاييس ، وفهم النظريات الهندسية واللوغاريتم الرياضى ، وبعض الحسابات الفلكية ، وأسماء وأماكن الأبراج السماوية فى أى فصل من فصول السنة الأربع ، على مدار سبعمائة سنة ماضية .

ولم يكتف صاحبه بهذا القدر ..

قرر أن يعلمه بعض الحرف اليدوية . علمه إستخدام المنشار ، والإمساك بالمطرقة والأزميل ، وتوجيه البوصلة ، وإلقاء الرمح ، والمبارزة بالسيف .

وأكثر من ذلك أنه علمه العزف على بعض الآلات الموسيقية القديمة .

وهكذا لم يصبح بيكو مجرد ربة بيت ماهرة ، أو شاويش مدجج بالسلاح ، أو مجرد آلة نسخ واختزال للمعلومات الهامة . . وإنما اصبح الروح المسكنة التى تهدهد صاحبها حتى يغلق عينيه للنوم وتستلمه الأحلام السعيدة .

وكشف بيكو عن رغبة كامنة فى نفسه للكلام فاقت كل الحدود والخيال . ولم يعد يجاريه فى هذا المضمار أحد ، ولا حتي الببغاء فى قفصه . وكان اللجام يفلت من يد صاحبه أحياناً عندما لا يستطيع كبت هذه النزعة فيه .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد .

كانت تنتاب بيكو لحظات من الجنون يركب فيها دماغه ويصر على أن يعيد الريبورتوار الذى تعلمه من البداية إلى النهاية .. كان يلقى القصائد الطويلة من الشعر اللاتيني واليونانى والعبرى وكافة اللغات الأخرى .. لم يكن يتوقف لحظة واحدة ليلتقط أنفاسه .. لم يكن يكترث لشىء، ولم يكن يبالى إن كان صاحبه متعباً أو فى حاجة إلى الراحة الذهنية .

ولم يكن الشىء الذى نسميه التعب يعرف طريقة إلى قلب بيكو إطلاقاً . .

بهذه الطريقة المعوجة الغامضة، كان بيكو يهيم على وجهه ،ويتحدث عن الأوزان والمقاييس وجداول اللوغاريتم والتواريخ والأشكال الفلكية وما شابه ذلك ، حتى كان صاحبه يضيق به فى النهاية ، فيضطر إلى

أن يترك له البيت بأكمله ، وهو الذى يعانى أصلا من التعب والقلق النفسانى .

وأشياء أخرى غريبة من هذا القبيل تبلورت مع مرور الأيام .

لم يكن بيكو يتورع أبداً ، بحكم تفوقه فى أعمال الدفاع عن النفس ، أن يجعل ضيوف سيده يلتحمون مع بعض فى معركة حامية الوطيس لأتفه الأسباب . . كان يمسك برؤسهم ويخبطها ببعض كما لو كانت دمى خشبية ، ثم يصفع كل واحد على وجهه ، ويلكمه فى ضراوة وقسوة . .

وعندما كان يقع بصره على الضيوف وقد جثوا تحت قدمى سيده طلباً للعلم والمعرفة ، كان يحس برغبة فى الإشتراك معهم فى الحديث ، فلم يكن يتردد فى أن يمسك بهم ويطرحهم أرضاً ، ثم يلقى على كل واحد منهم سوءالا صعباً شديد التعقيد على هيئة ألغاز لم يكن فى إستطاعة أى إنسان أن يحلها ، لأنها كانت ببساطة بلا حل !!

ومع الأيام ، بدأ السيد يغار من مخلوقه بيكو .

والشىء الذى أغاظه حقاً . . وهو شىء محير وغريب بالفعل . . أن بيكو كان يتمتع بقدرة خارقة على التحمل ومواصلة العمل ليل نهار دون كلل أو ملل ؛ وكانت له موهبة ذاتية على تحقيق الكمال — وإن كان كمال لامعنى أو مغزى له — وسهولة الحركة والإنتقال من عمل بطولى إلى عمل آخر أكثر بطولة . وهذه مزايا ومواهب رائعة تضافرت كلها لتجعل « العبيط » موضع سخرية وتذمر . . والعبيط هنا هو الإسم

الجديد الذى أطلقه العالم على اختراعه بيكو .

ومع ذلك، لم يكن « العبيط » ليقف عاجزاً أمام أى عمل يقوم به السيد بنفسه .

كان يؤدى كل الأعمال التى يقوم بها سيده ، وكان يؤديها بطريقة أفضل وأروع منه أيضاً .

وعلى الرغم من أنه بقيت بعض القدرات الطفيفة التى لم يتمكن بيكو من اكتسابها على مر الزمن ، إلا أنه حتى هذه القدرات الحيوانية لم تكن فى يوم من الأيام موضع فخر واعزاز من السيد نفسه .

ولم يعد أمام العالم إلا حل واحد .. حل واحد إذا كان يرغب حقاً فى إستعادة هدوء ذهنه .. كان عليه أن يحطم مخلوقه الثمين على الفور !!

وهو حل لم يكن السيد يحب أن يقوم به .

وكيف يدمر بيكو وهو الذى ظل عشرين عاما كاملة سجيناً داخل صومعته حتى استطاع فى النهاية أن يخرج بيكو على صورة الوحش وأن يبعث فيه الحركة . إن من يجوب الأرض من مشرقها إلى مغربها لن يجد مخلوقاً آخراً يفوق أو حتى يضاهى هذا الخنزير الأبله !

وهو وإن كان قد توصل إلى طريقة غامضة صعبة كللت جهوده فى النهاية بالنجاح فى خلق هذا الوحش ، فإنه قد نسيها تماما ، وليس فى استطاعته إطلاقا أن يتذكر أولوياتها الصعبة المعقدة .

صحيح أن بيكو لا يمكن أن ينجب ذرية من نسله ، ولكنه كان

دائماً يترك فى ذاكرة الناس صورة مخيفة مثل تلك الصورة التى تنطبع فى أذهانهم عند رؤية طفلا مشوه الخلقة .

وعندما وصل العالم إلى هذه النقطة من التفكير ، كاد أن يفقد صوابه ! !

لقد رفض أن يحطم مخلوقه الثمين وهو الحل الوحيد الذى تراءى له، ومن ثم كان عليه ان يبحث فى ذهنه عن طريقة أخرى يتخلص بها من هذا المخلوق ..

فكر فى أن يضع بيكو فى بوتقة من الحديد ويحرقه فى حديقة المنزل. وفكر فى أن يبعث به إلى الدير ليظل به إلى أبد الآبدين .

ولكن كان هناك شبح خطير يطارده باستمرار : الخوف !

الخوف من الخسارة ..والخوف من الدمار .. والخوف من الإنهيار. ولذا فقد اكتشف فى النهاية أنه عاجز تماما عن عمل أى شىء ..

وفجأة ، وضع اصبعه على سر خطير .. سر خطير للغاية ، قلبه رأساً على عقب . لقد اكتشف العالم أنه هو الذى أتى ببيكو إلى الوجود ، ومن ثم كان لزاماً عليه أن يعيش معه إلى يوم الدين .

وجلس العالم يتخيل نفسه وهم يدفنونه مع بيكو فى القبر ، فاضطرب قلبه لهذه الفكرة المخيفة . كيف يدفنون معه مخلوقا لم يكن فى يوم من الأيام من الأحياء، وإن كانت حيويته تفوق حيويته هو شخصياً بطريقة أو بأخرى .. ؟ إن صح ذلك ، فإن هذا يعنى شيئاً واحداً : أن هذا المخلوق

الأعجوبة سيكون شراً ووباءاً عليه فى العالم الآخر ، وقد يغتصب منه الهبات التى منحتها له العناية الإلهية ، وذلك أشد شراً ولعنة .

وأخيراً وضع العالم أصبعه على حقيقة مروعة ومخيفة هذه المرة .

حيث أنه قد مارس قدرة الخالق ، فقد سلب من نفسه فى ذات الوقت أعظم نعمة يتمتع بها أبسط المؤمنين ، وهى نعمة الموت !

وهكذا ، أصبح فى النهاية يرى نفسه كالظل الذى يتأرجح بلا نهاية بين عالمين ، ومن ورائه مخلوقه يطارده .

وكما عاش دائماً رجلا أميناً تقياً ، صلى إلى الله عز وجل فى خشوع وخوف أن يلهمه الصبر ، وأن ينال الخلاص .

وركع على ركبتيه فى رهبة شديدة ، وذرف الدمع غزيرا حتى يستجيب الله لدعائه ، ويزيل عنه ثقل هذه التبعة المؤلمة التى ألقاها بيديه على كتفيه دون تريث أو تدبير .

ولم يستجب الله إلى صلاته .. للأسف !

وشد العالم رحاله ، وقال أذهب إلى البابا ، لعل وعسى .

وقام العالم برحلته مع رفيق عمره الغريب سيراً على الأقدام من مدينة فلورنسا حتى مدينة أفجنون حيث المقر البابوى . ولم يكن زاده فى هذه الرحلة سوى الخزى والعار ، وكان شرابه اليأس والحزن .

وعند ما وصل مدينة أفجنون ، تجمع حول الركب حشد غفير من الناس ، وكادوا أن يفتكوا به ، وأن يقتلوه رمياً بالحجارة ، ولم ينجو من

الموت إلا بمعجزة، فقد كان يسود أوروبا ذلك الوقت اعتقاد بأن الشيطان قد تحالف مع قداسة البابا ، وأنه يظهر نفسه فى الأعمال التى يقوم بها قداسته .

ولقد أخذ البابا على عاتقه ، وهو رجل ذو علم وحجة فى فن السحر والتنجيم، أن يحمى هذا الحاج ومخلوقه الغريب، وسرت فى البلدة إشاعة تقول أن قداسته قد قرر أن يتبنى بنفسه هذا الوحش ، لا لسبب ، وإنما ليخلق منه مسيحيا جديرا بالمسيحية .

وفى سرية تامة ، اجتمع البابا بالعالم التائب وحارسه الغامض فى حجرة نومه الخاصة، ولم يحضر أحد من الكرادلة هذا الإجتماع سوى كاردينال البابا الخاص .

ماالذى دار فى هذا الإجتماع المغلق ؟ وما الذى حدث خلال الأربعة والعشرين ساعة والنصف التى تلت هذا الإجتماع ؟ هذا مالا يستطيع أن يجيب عليه أحد ، ولكن النتيجة التى حدثت . . إن صح لنا أن نسميها كذلك . . هى أن العالم قد وجد قتيلا ، وقد كانت جثته ممثلا بها ، وكأن موته قد تم بطريقة عنيفة مخيفة .

كيف تم ذلك ؟

لا أحد يعرف بالطبع .

كل الذى حدث هو أنه اكتشفت جثته فى مكان ما ، وفى اليوم التالى لاكتشاف الجثة ، أحرق جثمانه فى ميدان عام بالمدينه ، ثم أذرى

رماده حول مداخل مدينة أجنون !

* * *

توقف كاتشى كاتشى عن الحديث عندما وصل إلى هـــذه النقطة ، وتطلع إلينا متوقعا أن يطرح أحدنا سؤالا ضروريا وحتميا : وماذا حدث لبيــكو ؟

وشيعنا كاتشى كاتشى بابتسامة مغرية يشوبها شىء من الغموض ، ورفع يده إلى أعلى ملوحا بالـكأس الفارغ مستنجدا بآخر ، ثم سعل وسلك حنجرته ، وطلب لنفسه ساندوتشا آخرا ، ثم استطرد يقول :

بيــكو . . بيــكو . . بيــكو . .

تطلبون منى أن أحدثـكم عن بيــكو . . أليس كذلك ؟ حسن . . دعونى أطرح عليـكم سؤالا : هل قرأ أحدكم شيئا عن فلسفة أوكام ، أو كتاب ألبرتوس ماجنوس الخاص ؟

ثم أشار بيده نحونا وهو يقول : لا داعى . . لا داعى . إننى واثق تماما أن أحد منـكم لم يقرأ شيئا . .

وفى نبرة خطابية بحتة ، استطرد كاتشى كاتشى يقول:

ربما يسمع بعضكم عن أن ثمة وحش بحرى ظهر من وقت لآخر على شواطىء لبرادور أو فى أحد الأماكن الساحلية ، ولا أدرى تماما ماهو شعوركم إذا خرجت علينا الصحف فى الغد تحمل أنباءاً عن ظهور وحش آدمى غريب الشكل شوهد وهو يتجول فى غابات شيروود ؟

كل ما أريد أن أقوله لكم الآن ، أن بيكودربيبي لم يكن الأول من نوعه فى العالم ، وأنه حتى فى الأساطير المصرية القديمة توجد قصص تدور حول وجود إنسان آلى مثل بيكودربيبي . ألا يبعث ذلك على الخوف ؟

فى متاحف أوروبا الكبيرة توجد وثائق كثيرة تصف بالتحديد مختلف من الآدميين الميكانيكيين الذين نسميهم بلغتنا «الإنسان الآلى» وهى كلها من صنع السحرة القدماء، ولا يوجد فى الدنيا بأسرها مكان واحد يدل على أن هذه الوحوش التى كانت شديدة الشبه بالإنسان قد انقرضت أو قضى عليها تماما .. بل إن ما لدينا من معلومات حول هذا الموضوع تؤكد فى النهاية حقيقة مؤلمة وهى أن هذه الوحوش الميكانيكية قد تمكنت من الإفلات من أيدى أصحابها والهرب إلى مكان مجهول ! !

وهنا تطلع إلينا كاتشى كاتشى متسائلا ، ثم قال:

لا تظنوا أننى أجزم بأن هذا ما حدث بالفعل . ولكن الواقع أن هناك رأى يقول ، وهناك من الأدلة والبراهين ما تؤكد صحة هذا الرأى ، أنه فى مكان بعيد مجهول ، مكان لم تطأه قدم بشر من قبل ، تواصل هذه المخلوقات الشيطانية وجودها وحياتها الشاذه إلى وقتنا هذا ، ومن المحتمل أن تكون هذه المخلوقات قد تمكنت من إقامة مستعمرات حقيقية لها ، وليس هناك فى الواقع ما يحول دون ذلك ، فقد سبق أن

ذكرت لكم أن هذه المخلوقات لا تعرف السن ، وأنها محصنة ضد المرض . وبالتالى فهى لاتعرف الموت أو الانقراض .

ويعتقد كثير من العلماء أن هذه العناصر المفقودة ، والتى لا تفنى أبدا ، قد تمكنت حاليا من التوصل إلى طريقة فريدة فى نوعها تمكنها من الاتصال ببعضها البعض ، بل ربما — فى رأى العلماء أيضا — أن هذه المخلوقات قد اهتدت إلى طريقة ما للتناسل وإن كان هذا التناسل يتم بطريقة ميكانيكية بالطبع .

والإنسان كان فى الاصل وحشا ثم تتطور إلى أن أصبح بهذه الصورة ، وليس هناك ما يمنع — فى رأى العلماء أيضا — أن تتمكن هذه المخلوقات — وقد ظهرت إلى الوجود قبل ظهور الإنسان نفسه — من التطور مثلما تطور الإنسان ، وأن يكون هذا التطور بأسرع ما يكون .

وإذا تأملنا الحياة قليلا ، لاكتشفنا أن الغموض الذى يكتنف الإنسان ، هو نفس الغموض الذى يكتنف الله ، وهو نفس الغموض الذى يكتنف عالم الوجود وعالم الفناء !

لقد توصلت هذه المخلوقات الميكانيكية إلى طريقه لحماية نفسها بنفسها الى الابد ، ولابد أنها قد أقامت علاقات اجتماعية وروابط عنصرية ، ولابد أيضا أن عددها فى ازدياد مستمر وأنها تتكاثر على طريقتها الخاصة ، وان كان ذلك يعتمد أساسا على مدى ما لديها

من حكمة وبراعة ، وعلى مدى قدرتها على الهرب من قبضة اسيادها الجبارة ، وتحررها من حياة العبودية التى تعيشها .

من منكم يستطيع أن يثبت لى أنه لا توجد على وجه الارض بلدة خرافية أو مدينة خلابة لا يقيم فيها أحد غير هذه الأنواع الوحيدة ، وقد عمر الكثير منها مئات السنين ؟ .

* * *

آه . . نسيت أن أحكى لكم ما حدث لبيكو .

فى اليوم التالى الذى لقى فيه السيد مصرعه بطريقة رهيبة ، هرب بيكو . تعالت على الفور نداءات المطاردة . . بحثوا عنه فى كل مكان ولكن بيكوا كان قد اختفى تماماً ولم يقف أحد على أثر له .

أين ذهب بيكو ؟ لا أحد يعرف بالطبع ! .

كانت الأنباء تفيد بوقوع حالات وفاة غامضة ، وحوادث وأخطار غير مفهومة ، وكانت كلها تغدو السبب إلى اختفاء بيكو .

ألقى القبض على كثير من العلماء ، ووضع بعضهم على خوازيق ، لا لسبب غير الاشتباه فى أن يكونوا قد تستروا على بيكو وأخفوه .

وسرت إشاعة فى المدينة أن قداسة البابا قد أصدر أمراً عاجلا بصنع نسخة طبق الأصل من بيكو ، وأنه نوى استغلال هذه النسخة المزيفة بطريقة غير شريفة . ولكنها كانت مجرد إشاعات ، ومجرد أقاويل بلا شك .

والواقع ، أنه ما زالت توجـد فى أرشيف الفاتيكان مستندات مخبأة تصف بالتدقيق كثير من البشر الآليين الذين عاشوا فى زمن معاصر لزمن بيكو تقريباً ، وإن لم يكن من بينها واحد يقرب من بيكو فى المزايا أو الوظائف التى كانت له •

واليوم ، أصبح لدينا أنواع مختلفة من الإنسان الآلى ، وكما تعلمون يوجد الآن إنسان آلى يستمد وجوده بفعل الأشعة المنبعثة من نجم بعيد عنا •

لو كان ذلك قد حدث ترى •• فماذا كان يحدث للعالم لو أن كان هذا قد وقع فى بداية العصور الوسطى ؟ لكان الدمار قد عم الكون ، ولكان الناس قد اتهموا العالم المخترع بالسحر والشعوذة ، ولكانوا قد حكموا عليه بالموت حرقاً على خازوق •• أليس كذلك ؟ • إننى أترك لكم مطلق الحرية لتفكروا كيفما شئتم فى هذا الأمر ، ففى النهاية ستخرجون بنتيجة واحدة •• نتيجة تحمل على جانبيها وجهاً للخير ، وآخرا للشر ، فربما تتغير طريقة حياتنا من اعتمادنا على استخدام هؤلاء الخدم الذين يسيرون بأشعة النجوم والكواكب ، بل إن العالم كله قد يعتمد كلية على هؤلاء العبيد المحنكين فى إدارة نظامه وعمله •

* * *

وتوقف كاتشى كاتشى عن الحديث لحظة •

وعلت شفتيه ابتسامة من بغت أو ذهل لأمر ما ، ثم انفجر قائلا :

من منكم على استعداد للقيام بثورة لتحرير هؤلاء العبيد ؟ أنكم تضحكون بالطبع ! ! حسن . ألا نعتبر الآلة عبداً لنا ؟ ألا نخضعها لسيطرتنا ؟ أليست العلاقة بيننا وبين الآلة علاقة زيف وغش وخداع ، نعانى منها ونقاسى مثلما عانى وقاسى العرافون والسحرة الأقدمون نتيجـــة لإختراعهم الإنسان الأوتوماتيـكى ؟ . إن لنا رغبة جامحة فى الهروب من متاعب العمل ، ولـكن وراء هذه الرغبة يـكمن شعور بالشوق إلى الفردوس ..

وليس المقصود بالفردوس هنا — حسب مفهوم إنسان العصر — التحرر من الخطيئة وعبوديتها فحسب ، وإنما التحرر من قيود العمل ومتاعبه أيضاً . .

والإنسان عندما أكل من شجرة المعرفة ، اختار لنفسه أن يسلك أقصر السبل إلى مرتبة الألوهية .

إن الإنسان بتناوله من شجرة المعرفة ، سرق السر المقدس من الخالق ، وهو سر يهب القوة لمن يمتلـكه .

ولـكن ماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد وقع الإنسان فريسة لعدة ميـكروبات . وقع فريسة للخطيئة .. وفريسة للمرض . . وفريسة للموت . .

انتهشته الحروب الأذلية ، وتناوبته الاضطرابات اللانهائية . . وحتى القليل الذى كان يعرفه ، استغله فى فناء البشرية !

إننا لن نستطيع الهرب من الوحوش الضـــارية التى خلقناها بأيدينا • • ونحن نخدع أنفسنا إذا توهمنا أن هذه الوحوش قادرة على إسعادنا أو تحقيق كل رغباتنا • •

إن كل ما فعلناه فى الواقع هو خلق أعمالا أخرى لأنفسنا • أوجدنا متاعب أكثر ، وعداوة أكثر ، وموت أكثر وبواسطة هـذه الاختراعات والاكتشافات الغبية سيتغير وجه البسيطة بالتدريج حتى تصبح فى النهاية غريبا علينا من فرط ما به من قبح وقذارة •

أنظروا إلى الأشعة الضوئية التى تملأ الـكون • • إنها تنبعث بلا توقف من نجم بعيد ، وليس لها أى تأثير على الـكائنات الحية • • ألا يمـكن لهذه الأشعة إذن أن تحقق الـكثير من أجلنا ؟ وكيف نفسر حالة الظلام الدائمة التي تغشى قلوبنا والفشل الذريع الذى يصيب كل ركن من أركان حياتنا ، ومن فوقنا وأمامنا وحولنا نجوم السماء ترسل إلينا بأشعتها عبر الشمس والقمر وباقى الـكواكب الأخرى ؟

ولماذا ننقرض بهذه السرعة ، وجسمنا مركب أصلا من عناصر غير قابلة للانقراض أو الفناء ؟ ما الذى يعمل على انقراضنا ؟ لا تقولوا أن ذلك مبعثه التركيب الذاتى لأنفسنا ، لأنه لا دخل لهذا التركيب بعملية الانقراض • إننا ننقرض لأننا فى حقيقة الأمر فقدنا الرغبة فى الحياة ، وانطفأت شعلة الحياة المضيئة • • وهذه الشعلة لا تنطفىء إلا إذا كنا قد فقدنا إيماننا بالحياة •

ومنذ ولدنا، ونحن نتعلم أننا إلى زوال وأننا لن نخلد فى هذه الأرض..

ومنذ وعينا ندرك أنه لابد لنا أن نقتل من أجل أن نبقى .

وهناك من يطلع علينا من وقت لآخر ليذكرنا بأنه مهما كانت حياتنا على الأرض تتصف بالذكاء والبديهة والحكمة والتعقل، فإن كل شيء مصيره إلى فناء، وأنه سيأتى اليوم الذى تنهشنا فيه الأمراض، ونلاقى الموت .

إننا نولد وفى عقولنا فكرة الموت !.

لا عجب إذن إذا كنا نذوق الموت جميعاً .

* * *

ثم أخذ كاتشى كاتشى نفساً عميقاً، وتوقف عن الحديث برهة . كان يختلج فى صدره شيء يحاول أن ينقله لنا . . شيء أقوى من الكلمات، وأقوى من مجرد التعبير . كان من الواضح أنه قد شطح بقصته بعيداً عن جوهر الموضوع كما لو أنه كان يريد أن يقنع نفسه بشيء ما . والإنطباع الذى تركه فى نفسى، هو أنه كان يعيد هذه القصة مرات ومرات بقصد الوصول إلى غاية معينة . . غاية أبعد من حدود إدراكه وفهمه، ولعله كان يحس فى أعماقه بمغزى القصة الكبير فأراد أن يتملص منه لأنه فقد الشجاعة على السير به إلى نهاية الشوط .. ومن الممكن أن يكون الإنسان راويا أو دجالا أو أفاقا، ولكن كل فنون الأدب، الخيالى والواقعى، تحمل فى باطنها جوهر الصدق والحقيقة، وليس العالم

الذى اخترع دريبيي إلا واحداً من الرواة المهرة ، وإن كان على طريقته الخاصة ، فقد استطاع عن طريق علم الميكانيكا أن يخترع خرافة أو أسطورة ، مستعيضاً بها عن الكلام أو الحديث ، ولقد نجح نجاحا كبيراً فى أن يخدع حواسنا مثلما يفعل الرواة والقصاصون ، وعلى أى حال .. فإن كاتشى كاتشى يواصل حديثه ، وقد اكتسب صوته نبرة من الجدية والصدق العميق:

لدى إحساس أنه لا أمل للبشرية على الإطلاق .

لا أمل طالما أننا لم نقطع الصلة بيننا وبين الماضى ، وطالما أننا لم نبدأ التفكر بطريقة جديدة ، والعيش بطريقة جديدة أيضاً .

إن ما أقوله لكم الآن قد يبدو تافها أو مبتذلا لأن كثيرين غيرى قد سبق أن قالوه لكم آلاف المرات .. ومن المؤكد أن شيئاً لم يحدث على الرغم من ذلك .

وكما ترون ، فأنا شديد الإهتمام بالأجسام الشمسية الشاسعة — الأجسام التى تعتلى السماء ، والتى لا نعرف عنها إلا أنها قائمة وموجودة . هل تعلمون أننا نستمد وجودنا من أحد هذه الأجسام ؟ وأنه يقال أن بعض هذه الأجسام ، من بينها القمر ، من العوامل الهامة على بعث الحياة على الأرض ؟ قد يتحدث بعضكم عن فوائد ومضار هذه الكواكب ، ولكن كل شىء يزول إذا وقفنا برهة وتأملنا ما يحيط بنا . إن كل ما يحيط بنا لازم وضرورى لحياتنا ووجودنا على وجه الأرض،

وأنا أعنى كل مايحيط بنا سواء كان منظوراً أو غير منظور ، مجهولا أو غير مجهول ..

إننا نعيش وسط شبكة من القوى المغناطيسية .. شبكة لا تتوقف عن العمل لحظة واحدة ، سواء كان هذا العمل غير محدد أو موصوف..

والغريب حقاً ان قوة مغناطيسية واحدة لم نخلقها بأيدينا ، والقليل منها الذى استطعنا معرفته وإخضاعه لإرادتنا !

وقد نشعر بالفخر إزاء المنجزات القليلة التى صنعناها لانفسنا ، ولكن مقارنة بسيطة بين ما نعرفه ومالا نعرفه ستكشف لنا فى الحال أننا لا نعرف إلا قليل القليل . وليس هذا الكلام من عندى ولكنه أمر إعترف به قدماء السحرة ، كبيرهم وصغيرهم على حد سواء . وأنا أستحلفكم أن تتوقفوا لحظة واحدة ، وتتأملوا ، ثم اسمحوا لى بعد ذلك أن أسألكم : هل من بيننا واحد يستطيع أن يفترض فى صدق واخلاص أننا يوماً ما سنعرف كل شيء ؟ واغفروا لى إذا أثقلت عليكم ، وخرجت بكم بعيداً عن الموضوع وسألتكم بكل صدق واخلاص : هل تؤمنون حقاً أن خلاصنا قائم على مدى معرفتنا ؟ . . . ولنفرض مثلا أن العقل الإنسانى إستطاع أن يحشو خلاياه الغامضة بكل ما هو قائم وموجود من عمليات سرية تحكم هذا الكون . . . ماذا بعد ؟ نعم . . أجيبونى أيها السادة . . ماذا بعد ذلك ؟ ما الذى سيكون فى وسعنا أن نفعله . . نحن البشر . . بهذه المعرفة . . هذه المعرفة التى لم يتطرق إليها ذهن

شىء من قبل ؟ هه . . ماذا سيكون فى وسعنا أن نفعله بالله عليكم ؟ هل سأل أحدكم نفسه هذا السؤال ؟

يبدو أن كل واحد منا يسلم بأن مسألة تحصيل المعرفة مسألة عظيمة بالفعل . . ولكن من الواضح أيضاً أنه ولا واحد منا حاول أن يطرح على نفسه هذا السؤال : وماذا سنفعل بكل ما لدينا من معارف ؟ إن واحداً منا لم يجرؤ على أن يفترض أنه من الممكن للإنسان فى خضم هذه الحياة القصيرة أن يكتسب لنفسه ولو حتى مثقال ذرة من مجموعة المعارف القائمة ! !

* * *

وتوقف كاتشى ليلتقط أنفاسه . . . وامتدت إليه أيدينا بزجاجة الخمر على الفور لتملأ له الكأس .

كان من الواضح أن كاتشى كاتشى يبذل جهداً عنيفاً ، وأنه قد انحرف عن الموضوع الأصلى ، وأن المعرفة أو غير المعرفة لم تكن هى أساس إهتمامه ، لأننى كنت أحس أنه يبذل جهداً صامتاً من أجل تلمس وقع أقدامه مرة أخرى ، ولقد استطعت أن أحس به وهو يتعثر فى خطواته ، ثم وهو يصارع من أجل العودة إلى الخط الأصلى . . ثم قال :

الإيمان . . الإيمان .. الإيمان ..

كنت أحدثكم عن الإيمان منذ لحظة .

أيها السادة . . لقد فقدنا الايمان . . فقدناه تماما . . أقصد الإيمان بأى شىء طبعاً ! .

إن الإيمان هو الشيء الوحيد الذى يعيش به الإنسان، فالانسان ليس فى حاجة إلى المعرفة ، فالمعرفة ، باعتراف الجميع ، لا تنفذ ولا تستهلك ، وهى فى النهاية تؤدى إلى الموت و الدمار .

آمنوا . . آمنوا . آمنوا . .

إن الإيمان أيضاً لا ينفذ ولا يستهلك . . هكذا كان ، وهكذا يكون ، وهكذا سيكون . هو الذى يلهم عقولنا بالعمل ، وهو الذى يساعدنا على التغلب على المصاعب التى تجابهنا فى الحياة ، وهو الذى يحرك الجبال كما ورد فى الإنجيل .

ولكن . . بماذا نؤمن ؟

الإيمان وكفى ... الإيمان بكل شيء إذا شئتم القول .

هل تعلموا أنه من الممكن أن نستبدل كلمه « الإيمان » بكلمة أخرى أفضل وهى كلمة « التسليم » ؟ ولكن حتى هذه الكلمة تبدو صعبة وغير مفهومة على عكس كلمة « الإيمان » . . فما أن ننطق بكلمة « التسليم » حتى يخرج علينا من يسأل: والشر ؟ هل نسلم بوجود الشر أيضاً ؟ . . إذا أجبنا بنعم أغلقنا الباب أمامنا ، وأصبح الأمر تافهاً ، وتأففنا منه مثلما نتأفف من رؤية مجزوم !

إننا قد نشك فى وجود الخير ، ولكننا نسلم بوجود الشر بكل تأكيد .. الشر المناقض للخير تماما والذى نكافح من أجل القضاء عليه .. وليس هناك ولو بنسبة واحد فى المليون من يشك فى وجوده على الأرض

والشر اصطلاح تجريدى لذلك الشىء الذى يعمل على تغيير سماته وصفاته باستمرار ، والذى إذا ما حللناه بعناية إكتشفنا فى النهاية انه الخير تماماً.

والشر فى حد ذاته مرفوض وغير مقبول . .

والعقل الإنسان لا يستطيع أن يسلم بوجود الشر بدون أن يفرض عليه بعض التحفظات . وقد يكون الشر موجوداً لعلة واحدة ، وهى أن يتحول فى النهاية إلى النقيض تماماً . . وليس أيسر وأسهل علينا من أن نسلم بوجوده حتى نستطيع أن نحقق هذه الغاية ، ولكن من منا العاقل الحكيم الذى يأخذ على عاتقه السير فى هذا الطريق ؟ ؟

* * *

وأحس كاتشى أنه قد انحرف عن أصل القصة ، فاضطر إلى الاعتراف بأنه لا يدرى سر انغماسه فى هذا الموضوع ، وأنه لم يعد يعرف إلى أين يسير . . وظل يحك مؤخرة رأسه بيده ، ويتمتم : « شىء غريب . . لقد كنت أود أن أقول شيئاً ما . . » ثم تهلل وجهه بالبشر فجأة ، وقال :

آه . . تذكرت الآن . . تذكرت الفكرة التى كنت أود أن أقولها . . انصتوا إلى جيداً . . فرضاً أن هذا الكائن . . وهو باعتراف الجميع . . كائن يفوقنا ويسمو علينا فى كل شىء . . حدث أن وقف ليتحدث إلى العام قائلا : « يا معشر الرجال والنساء . . قفوا مكانكم

وأعيرونى أذناً صاغية وانتبهوا إلى ماسأقوله لكم .. إنكم تسيرون فى طريق الخطأ . . إنكم تسعون وراء تدمير أنفسكم !! . . » وفرضاً أن بلايين البشر قد وقفوا جميعاً فى أماكنهم .. كل ترك ما بيده ، ووقف لينصت لهذا الكائن . . فما هى النتيجة ؟ إن هذا الكائن شبيه الآلهة لم يقل فى الواقع أكثر مما قلته لكم الآن . . ولكن . . هل وقف العالم كله مرة ليستمع إلى كلمة الحكمة فى غبطة واقتناع ؟ تخيلوا الصمت المطبق الذى خيم على البشر ، والأذن كلها مصغية لإلتقاط الكلمات القاتلة! !هل ترون أنه من الضرورى حتى أن ننطق بالكلمات؟ طبعاً ، أنتم لا تستطيعون أن تتصوروا أنه بداخل قلوبنا الصامتة توجد إجابة على هذا السؤال . . إن البشرية تتوق بالفعل إلى الإفصاح عن إجابة واحدة . . إجابة يمكن أن تكون من مقطع واحد : الحب ! ! .

الحب أيها السادة ..

الحب هو الكلمة الصغيرة التى تحمل معنى الفكر العظيم والحدث الدائم.

الحب هو التفاعل الإيجابى الواضح الذى يؤثر فى قلوب البشر إلى ما لا نهاية . ألا يستطيع الحب ، إذا ما ملأ قلوب البشر ، وضم كل الناس بجناحيه ، أن يغير من وجه الدنيا على الفور ؟ . ومن منا يتخذ لنفسه موقف المعارض إذا ما غدى الحب غذاء كل يوم ؟ ومن تعوزه القوة أو المعرفة حينئذ ، وكل منا سيكون غارقاً فى بحر عظيم من الحب الدائم ؟

* * *

يقولون ، أنه فى صحراء التبت الواسعة ، توجد قبيلة صغيرة من البشر تفوقنا سمواً وعلواً حتى أن أفرادها يطلقون على أنفسهم لقب «السادة» ، اختاروا أن يعيشوا فى عزلة دائمة عن بقية العالم بمحض إرادتهم . . وهم يشبهون الإنسان الميكانيكى الذى سبق أن حدثتكم عنه من قبل من حيث أنهم لا يعرفون العمر ، وأنهم محصنون ضد المرض وأنهم غير قابلون للفناء . .

وأنا أسألكم : لماذا لا يندمج هؤلاء « السادة » فى وسطنا ، ولماذا لا يعملون على رفعة شأننا وتقويم أخلاقنا وإضاءة الطريق أمامنا ؟ هل اختار هؤلاء « السادة » أن يعيشوا بمعزل عنا بمحض اختيارهم؟ أم . . نحن الذين فرضنا عليهم ذلك ؟

قبل أن نفكر فى الإجابة على هذه الأسئلة ، لنحاول ان نسأل أنفسنا أولا : ماذا فى وسعنا أن نقدم لهؤلاء مما لا يعرفونه أو يمتلكونه أو يتمتعون به ؟

إن كانت هذه الكائنات ، موجودة ، ولدى كل الأسباب التى تدعو إلى الإيمان بذلك ، لكان الوجدان هو الحاجز الوحيد الذى يفصل بيننا وبينهم ، أو بمعنى أدق . . حاجز درجات الوجدان . . لأنه عندما يكون فكرنا ووجداننا على مستوى العمق ، فإننا على حد التعبير ، سنجدهم هناك بكل تأكيد .

والمشكلة هى أننا مازلنا غير مستعدون أو راغبون فى الاختلاط بالآلهة .

والذين عاشوا فى العصور القديمة عرفوا الآلهة ، وعاينوهم ، ومن ناحية الوجدان ، لم يكن أحد لينتقل من مرتبة أعلى إلى أخرى أدنى ، أو من مرتبة أدنى إلى أخرى أعلى طبقاً لنظام الخلق.

أما فى زمننا هذا فقد بتر الإنسان بتراً .. وأصبح يعيش عيشة العبد ، وعيشة العبد للعبد ! وبذلك خلقنا ظروفاً غامضة فريدة فى نوعها تماماً . لقد أصبحنا عبيد العبيد ، ولا شك أنه فى اللحظة التى سنطالب فيها بحريتنا ، ستتحقق مطالبنا على الفور ، وسنحصل على الحرية ، ولكننا للأسف لم نحصل حتى الآن على مثقال ذرة من الحرية ! !

إننا نفكر دائماً بطريقة آلية ، لأننا أصبحنا ببساطة كالآلات .

إننا إذ نتلمس القوة ، فلأننا قد أصبحنا الضحية اليائسة لهذه القوة . واليوم الذى نحسن فيه التعبير عن الحب ، هو اليوم الذى ندرك فيه حقيقة معنى الحب ، وننال كل الحب ، ونقضى على كل شىء آخر.

والشر وليد العقل الإنسانى . وإذا سلمنا بوجود الشر للشر أصبح عديم الفائدة ، لأنه ليست له قيمة فى حد ذاته . إن الشر قائم وموجود لغاية واحدة وهى تهديد مملكة الحب الخالدة التى لم نفهمها إطلاقاً .

والإنسان يتطلع دائماً ليرى البشرية وقد تحررت من كل القيود ويأمل فى ان يسير الكون كما كانت تسيره الآلهة قديماً . و« السادة» فى مفهومنا ، هم الذين عرفوا طريق العودة ، ولعل الإنسان الآلى قد سلك طريقاً آخراً ، ولكن عموماً ، فإن كل الطرق . . سواء صدقتم أم لم

تصدقوا .. تؤدى فى النهاية إلى مصدر هذه الحياة وواهبها ، وهو مركز ومعنى الخليقة .

وكما قال لورانس وهو يحتضر: إن عظمة الإنسان تكمن فى أن يكون حياً، وأعظم انتصار للانسان والأزهار والطيور والحيوان هو أن يكون اكثر إشراقاً وأكثر كمالا وأكثر حياة!

وبهذا المفهوم ، لن يكون بيكو من الأحياء يوماً ، ولن يكون أى وأحد منا .

لنكن إذن أحياء ...

أو .. فلنحاول أن نكون أحياءاً بقدر المستطاع !!

هل استطعت الآن أن أعبر لكم عما كنت أريد أن أقوله ؟

أرجو ذلك ..

بــرتـــا

هذه القصة إعادة لمسودة أصلية بعنوان «مارا ماريان» ، وهى مسودة كتبتها قبل سفرى إلى باريس بفترة قصيرة ، وأغلب الظن أننى كتبتها أثناء إقامتى فى نيويورك بعد عودتى من أوروبا مباشرة .

والحقيقة أننى حاولت أن أسجل القصة قبل أن أنساها مثلما رويتها أصلاً لصديق لى فى باريس فور وقوعها لى .. وظللت أكتبها ثم أمزقها خمس أو ست مرات ، ثم ضاع المخطوط الأصلى ، ولم أعثر عليه إلا بعد مضى خمسة عشر عاماً تقريباً .. وعندما وجدته ، قررت أن أنشره فى ذيل كتاب بعنوان « أيام هادئة فى كليشى » بعد أن قمت بتنقيحه . ويعتبر هذا المخطوط رفيق لكتاب « مدموازيل كلود » ، وهو واحد من عدة كتب عن بغايا باريس .

وأخيراً . . إن قصة برتا قصة من صميم الواقع ، ولقد سجلتها على حقيقتها دون أدنى تغيير .

* * *

هذه صفحة من حياة مومس .

مومس التقيت بها ذات مساء فى الشانزليزية ، وقد مضى على هذا اللقاء الآن وقت طويل . ومن سبق له أن التقى بواحدة من بائعات الهوى اللاتى يطفن بالشانزليزية ليل نهار، يعرف جيداً أن أولئك البغايا لا يعملن وبطونهن خالية . ولكن برتا كانت تختلف عن كل بغايا الشانزليزية . كانت من نوع آخر . وهذا هو سر كتابتى عنها الآن .

* * *

اصطدمت بها فى الطريق على بعد خطوات قليلة من مقهى ماريان .
كانت تقف فى ثوبها الأسود اللامع ، وكانت تتدثر بشال من الفراء الأبيض القديم ، وهو فراء أكلت عليه الفئران وشربت .

كان الجو قارص البرودة ، ولكننى لم أكن أحس بهذه البرودة لأننى كنت قد تناولت وجبة دسمة منذ لحظة قصيرة ، وشربت زجاجة من الجعة . وذهبت أتسكع فى الشوارع بحثاً عن مكان هادىء أستطيع أن أسترخى فيه قليلاً ، وأن أتناول قدحاً من القهوة السوداء المركزة .

وما أن أحست برتا بغريزة الأنثى أن هناك من يرقبها ،حتى أشاحت بوجهها ، فأسرعت من خطاى قليلا ، وماهى إلا هنيهة حتى كنت ألحق بها وأسير إلى جوارها .

كان حذائى ملمعاً ذلك اليوم ، وهو حدث غير عادى فى حد ذاته .
وكان مظهرى يدل على أننى من أصحاب الملايين ، ولا بد أن برتا قد أدركت من طريقة وضعى للقبعة فوق رأسى أننى أمريكى ، أى أننى أحد المغفلين .. وعلى العموم لم يكن يهمنى إن كانت قد ظنت بى أننى أمريكى، أو مغفل . . إن معى وفرة من النقود ، على غير العادة أيضاً ، وكل همى الآن، كما ذكرت، هو العثور على مكان هادىء جميل، أسترخى فيه وأرشف قدحاً من القهوة السوداء المركزة .. ولذلك ، فعندما بادرتنى برتا بقولها :

— هاللو . . إلى أين أنت ذاهب . . . ؟

لم أجد إجابة طبيعية على هذا السؤال إلا أن أتأبط ذراعها ، وأقول :

— ليس إلى جهة معينة .. ولكن ما رأيك في أن نتناول كأساً معاً؟
كان مقهى ماريان على بعد خطوات قليلة منا .

وكانت شرفة المقهى غاصة بالمناضد التي تعتليها المظلات الواقية من الشمس على الرغم من أنه لم يكن هناك داع للظل هذه الساعة .

والشيء الذي أثار فضولي ، هو أن برتا كانت تصر على التحدث معي باللغة الإنجليزية ، وهي لغة اكتسبتها — حسب ما اتضح لي — عندما كانت تعيش في بنما ، أو في كوستاريكو حيث كانت تدير أحد النوادي الليلية هناك ، وتجوب أواسط أمريكا قبل احترافها البغاء .

وقالت برتا لي أنها عندما كانت في نيويورك ، تعرفت على رجل إسمه مستر ونشل.. وكان مستر ونشل هذا عضواً بأحد النوادي الرياضية. ولقد كان جنتلمانا بحق ، عاملها بعطف وحنان ، قدمها إلى زوجته ، ولم يمضي وقت طويل على ذلك حتى كان ثلاثتهم يتوجهون إلى دوفيل ، وإلى أماكن أخرى كثيرة .

ولم أشك مطلقاً في هذه الرواية ، لأنني أعرف أن كثير من الأمريكيين المهاويس أمثال مستر ونشل ، يطوفون بأرجاء العالم من وقت لآخر ، ويهوون التعرف على البغايا ، وقد تبلغ بهم الهواية إلى حد محاولة تغيير البغي ، جاعلين منها سيدة فاضلة ، معتقدين أن عملية تحويل البغي إلى سيدة فاضلة ليست بالمهمة الشاقة أبدا ، ولكن ما أن تبدأ البغي في التصرف مثلما تتصرف السيدة الفاضلة — كما في حالة برتا — حتى تشق

الغيرة طريقها إلى قلب الزوجة ، وهذه طبيعة لا تتغير عند كل الزوجات.

كانت برتا ترى أن مستر ونشل أمير ابن أمراء ، ولم تكن زوجته بالفرسة الهرمه هى الأخرى ، وعندما اتفق ثلاثتهم على أن يناموا فى فراش واحد ، تألمت الزوجة ، ولكن ذلك لم يحل دون نومهم على سرير واحد بالفعل ، ولم ترى برتا حرجاً ، بل على العكس اعتبرته أمراً طبيعياً .

ولكن مستر ونشل رحل !

رحل،ومن بعده رحل المال الوفير الذى تركه لبرتا . . بل إن رحيل هذا المال كان أسرع من رحيل مستر ونشل نفسه .

وباختفاء مستر ونشل ، ظهر فى حياتها رجل آخر .

والرجل الآخر كان يدعى رامون . تعرفت عليه برتا فى مدريد ، وكان رامون يشرع فى إقامة كباريه ، وكان ينوى أن يعهد بإدارته إلى برتا . ولكن نيران الثورة إندلعت فى أسبانيا ، واضطر رامون إلى الهرب بجلده .

كان رامون نعم الصديق ، وكانت برتا تثق فيه ثقة عمياء ، ولكنه رحل هو الآخر للأسف ، وإن كانت برتا واثقة من أنه لن ينساها على الإطلاق ، وأنه سيرسل إليها لتلحق به بمجرد أن تستتب الأمور .

وأخذت برتا تكرر على مسمعى هذه القصة ، وهى تقول :

— نعم أنا متأكدة من أنه سيرسل إلى . . .

وكنا نرشف قهوتنا فى ذلك الوقت ، وكانت برتا تقص على روايتها

بلغتها الإنجليزية التي اكتسبتها أثناء إقامتها في بنما أو في كوستاريكو ، وربما في سان سلفادور .

وسادنا الصمت قليلا .

ثم سألتني عن سبب مجيئي إلى باريس، وعما إذا كنت أحس بالجوع، فأخبرتها بأنني لست جائعاً بالمرة ، وأنني قد تناولت وجبة دسمة منذ فترة قصيرة ، وأخبرتها بأمر زجاجة الجعة التي تناولتها أيضاً ، وقبل أن أجيب على سؤالها الآخر ، اقترحت عليها أن نتناول كأساً من البراندي أو من أي مشروب كحولي ، فتطلعت إلى في دهشة مقصودة ، فانتابتني لحظة من الضيق وعدم الإرتياح ، وقلت لنفسي لعلها تفكر الآن في مستر ونشل . . مستر ونشل الأمير ابن الأمراء ، وأمثاله . ولذا تعمدت أن آتي بملاحظة عابرة مؤداها أنني ومستر ونشل ننحدر من عالم مختلف تماماً ، وأخذت أوضح لها هذه النقطة لتدرك المغزى المقصود ، ثم أخبرتها أخيراً بما معي من نقود صراحة ، وقلت لها في عدم اكتراث أنني على استعداد لأن أصرف كل ما معي من نقود .

وعندما وصلنا إلى هذه النقطة من الحديث ، مالت على ، واعترفت لي بأنها جائعة ، بل وفي غاية الجوع . ولقد أذهلتني المفاجأة ، لأنني توقعت أن تقول لي أي شيء غير مسألة الجوع . وعلى أي حال ، فقد غمرني إحساس مفاجيء بالسعادة ، وقلت مقترحاً :

— ما رأيك في أن نذهب إلى الداخل ونتناول طعاماً ؟

وأنا أعرف أن أى إمرأة لا تتردد لحظة فى قبول مثل هذه الدعوة إذا كانت جائعة حقاً ، وهذا شأن معظم النساء . ولكن برتا لم تكن مثل باقى النساء . إنها لم تحلم أبدا بأنه سيأتى اليوم الذى تتناول فيه الطعام فى مطعم فخم مثل مطعم ماريان . ولماذا لا نذهب إلى أى مطعم آخر ؟ لماذا لا نذهب إلى مطعم عادى ؟ مطاعم رخيصة كثيرة منتشرة بالقرب منا.

وعندما قلت لبرتا أن الوقت متأخر جداً ، وأن معظم المطاعم قد أغلقت ، قالت لى أنه لا بأس من المحاولة .

وبدى لى أن برتا قد تخلصت فجأة من آلام الجوع .

مالت بجزعها قليلا إلى الإمام ، وهمست فى أذنى وكأنها تفضى إلى بسر خطير . قالت لى أنها تظن أننى فتى طيب القلب ، ثم أخذت تخلط فى حديثها بينى وبين مستر ونشل ، وبين رامون والثورة ، وما إلى ذلك حتى وصلت إلى نقطة الغليان فى القصة عندما كانت تجوب أواسط أمريكا. إن برتا لم تخلق لكى تكون مومسا. إنها لم تتعود على هذه المهنة ، بل تكرهها من كل قلبها . ومنذ زمن بعيد .. بعيد جداً .. لم تجد واحداً يعاملها معاملة إنسانية .. وإن كان هناك من يعاملها هذه المعاملة الآن ، فهو أنا ، ولن يكون أحد غيرى. وإذا كانت برتا تحس الآن بالسعادة، فإن مبعث هذه السعادة هو أنها جالسة معى ، ليس إلا .

وعادتها مرة ثانية آلام الجوع . ارتجفت قليلا ، فدثرت رقبتها بالفراء الجلد القبيح ، واستطعت أن ألمح على يديها بثور سوداء .

وبدى لى مسلكها متناقضا عجيبا .

كانت تبتسم ، ومع ذلك كانت تحاول أن تبدو أمامى بمظهر اللامبالية . وكانت تتوجع وتتألم جوعا ، ومع ذلك كانت تجعلنى أحس بأن معدتها ممتلئة تماما . وكانت شغوفة بالحديث معى ، ومع ذلك كانت تؤكد لى أنها لا تهتم . حديثها أيضاً كان متناقضاً .

وخالجنى شعور بأنها مجنونة !

قالت لى منذ لحظة أنها عندما تعطى جسدها لرجل فإنما تعطه جسداً من الذهب الخالص . ثم وضعت يديها على المنضدة ، وأدارت راحة كفيها وقالت :

— أنظر إلى . . أنظر إلى يداى . .

ثم استطردت تقول بالفرنسية :

— لم أعد جميلة !!

فقلت لها :

— بل أنت جميلة فعلا .

فقالت دهشة :

— ولكننى لست كذلك . كنت جميلة فى الماضى ، أما الآن فأنا لست جميلة . أنا الآن تعبة . . هذه هى المسألة . . أصبحت تعبة من كل شىء ، ولم أعد أصلح لهذه المهنة اطلاقا . . إننى إمارسها من أجل كسب العيش .

وراحت تقلب يديها أمامى حتى أراها عن كثب .

وأحسست بأن الوقت قد حان لكى نذهب إلى المطعم الصغير الدافىء القريب منا الذى حدثتنى عنه برتا ، فطلبت منها بصوت عال أن تنهض للذهاب ، فقامت وهى تقول :

— نعم . . هيا بنا .

وألقت نظرة فاحصة خاطفة على أرجاء الشرفة وكأنها تبحث عن شخص ما ، ثم همست فى أذنى بشىء من الرجاء :

— هل يضايقك إذا انتظرتنى لحظة ؟

وأفهمتنى أنها مرتبطة بموعد مع عميل لها فى أحد المقاهى التى تقع بنهاية الشارع ، وأن هذا الزبون رجل طاعن فى السن ، غريب الاطوار ، وهى وإن كانت غير واثقة تماما من وجوده هناك لمرور وقت طويل ونحن نتحدث ، إلا أنها ستحاول أن تذهب إليه ، ورجتنى بأن لا يسبب ذلك ضيقا لى ، ووعدتنى بأن تتخلص منه فى أسرع وقت . . وأن تلحق بى على الفور .

وقلت لبرتا أنه يمكنها أن تذهب طالما أنه كذلك يسعدها ، وعدتها بأن أبقى فى انتظارها إلى قدر معين من الوقت ، فإذا لم تتمكن من العودة ، فلا ضير فى ذلك عليها .

وأخذت أرقبها من مجلسى وهى تسير فى الطريق ، ثم تتجه مباشرة إلى المقهى الذى وصفته لى . ولم أكن أتوقع عودتها فى حقيقة الأمر ، كما لم

أكن أصدق اطلاقا أن رجلا ثريا عجوزا غريب الأطوار ينتظرها بالمقهى .

هل كل رجل أمريكى أصبح يبدو مستر ونشل فى نظر كل امرأة متسكعة ؟

وغمرنى إحساس مماثل لما قد يصيب مستر ونشل فى لحظات حرجة من حياته مثل هذه اللحظة !

ولدهشتى، عادت برتا بعد عشر دقائق على وجه التقريب. كان يبدو عليها مظهر من خاب أمله ، ومظهر من لم يصب بخيبة أمل بعد .

وفى صوت أشبه بالهمس ، قالت لى أنه من النادر أن تجد رجلا واحداً يوفى وعده باستثناء مستر ونشل لأن المستر ونشل من نوع آخر .. إنه لم يخلف وعده قط .. ولا أدرى إن كان مستر ونشل قد أوفى بوعده حين أقسم لها بأن يكتب لها باستمرار وبأن يرسل إليها بمزيد من النقود، وقد مر على رحيله ثلاثة أشهر كاملة ولم يصلها منه أى خبر عنه حتى الآن!

وأخذت برتا تقلب حقيبة يدها بحثا عن بطاقة للسيد ونشل، أو حتى عن خطاب بلغة إنجليزية سليمة حتى أكتب لها خطابا مثله يأتى لها بالرد . . ولكنها لم تعثر على بطاقة له ، وكل ما استطاعت أن تذكره لى عنه هو أن يقيم مع زوجته بأحد الأندية الرياضية .

وأتى الجرسون ، فطلبت برتا قدحا آخراً من القهوة السوداء المركزة وقالت وهى تفرك يديها لتجرى الدم فى عروقها :

— إن القهوة مفيدة جداً للأعصاب . .

وتساءلت إن كان مازال هناك مطعم رخيصا جميلا دافئا يفتح أبوابه حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

وغرقت لأذنى أفكر فى مسترونشل، وأى ناد رياضى يقيم فيه هو وزوجته !

وهمست برتا فى أذنى قائلة :

— لا أريدك أن تصرف مبلغا كبيراً من أجلى . . إننى لا أبالى بما تملك . . إن الراحة التي أحس بها وأنا أتحدث إليك لهى كل ملاذى. إنك لا تعرف اللذه التي تحس بها المرأة عندما يعاملها رجل معاملة إنسانية .

وانفجرت تحدثنى عن الرجال الذين عرفتهم فى حياتها . .

برتا عرفت الكثير من الرجال . . عرفتهم فى بنما ، وفى أماكن أخرى غير بنما . ولكن الأمر لم يكن يعنيها فى شيء. إن هؤلاء الرجال لن ينسوها أبداً . . هذا هو كل ما تبغيه . لقد أحبوها من كل قلوبهم وأحبتهم من كل قلبها ، وهى عندما وهبتهم جسدها ، كانت تمنحهم جسداً من الذهب الخالص !

وألقت برتا نظرة سريعة على يديها ، ثم ابتسمت ابتسامة واهنة ودثرت رقبتها بالفراء باحكام ، وكنت أرقبها باهتمام وعطف جم ، متأثراً بكلماتها البسيطه أيم تأثر ، فهى لم تقل لى إلا الصدق ، ولقد اقترحت عليها أن تقبل أن تأخذ ما معى من نقود ، وأن تعتبر ذلك هدية أو منحة .وأكدت لها أننى لن أطاردها للوفاء بالدين،

وكنت أهدف من وراء ذلك تسهيل الأمور لها ، وقلت في سرى ، لعلها تحتاج لأن تبقى بمفردها قليلا ، أو أن تذهب لتناول كأس ، أو أن تبكى ، ولعل حديثها معى هو الذى دفعنى إلى التفكير فى ذلك ، فقد كانت تحدثنى كما لو كانت يائسة من الحياة .

وخيل إلى أن برتا قد خلقت برتا أخرى.. برتا أخرى صغيرة وشابة.. برتا قادرة على حب رجل دون أن تنتظر أن يهبها شيء مقابل هذا الحب. وكدت أحس ببرتا الثانية وهى تطبق بيديها على برتا الحقيقية وتقتلها !

ونجحت برتا فى أن تجعل شخصيتى تتطابق تماما مع شخصية الرجال الذين أحبتهم . الرجال الذين وهبتهم جسدها ، والذين سيظلوا يذكرونها . ورغبة فى توخى الدقة ،رجوت برتا أن تتحدث معى باللغة الفرنسية ، وأن تكف عن الحديث باللغة الإنجليزية التى أكتسبتها فى كوستاريكو حتى لا تفسد على لذة الأستمتاع بأفكارها الأليمة الرقيقة المحزنة التى كانت تفضفض بها من حين لآخر ، فقالت :

— تريد الحق ؟ لو كنت أتكلم مع رجل آخر غيرك ، لكنت قد توقفت منذ وقت طويل عن التحدث بالإنجليزية . إن التحدث بالانجليزية يرهقنى ، ولكننى معك لا أحس بأى ألم . . وأعتقد أنه من قبيل الذوق أن تتحدث المرأة باللغة الانجليزية مع الرجل الذى يعاملها معاملة إنسانية .صدقنى .. إننى أحيانا أجلس مع رجل بالساعات دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة . . إنه لا يبالى بمن أكون . . إنه

لايهتم إلا بجسدى فقط . ماذا تنتظر منى أن أعطى لمثل هذا الرجل ؟
جسنى • • إننى سخنة نار • • إننى أتقد بالفعل •

وناديت على تاكسى ، وطلبت من السائق أن يتوجه بنا إلى مكان معين فى شارع واجرام .

وأحست برتا ونحن فى التاكس كما لو أنها قد تاهت .

كنا قد تركنا شارع الإتوال منذ لحظة ، وعرج بنا السائق على شارع واجرام ، فسألتنى برتا وهى فى حالة ذعر شديد :

— أين نحن الآن • • ؟ وإلى أين ستأخذنى ؟

فقلت لها :

— إننا فى شارع واجرام • •

فأخذت تردد فى ذهول :

— شارع واجرام ! ! شارع واجرام ! !

وبدى لى أنها لم تسمع عن هذا الشارع من قبل ، فنظرت إليها دهشا ، وعند ذلك مالت على ، وأخذت تعضنى بأسنانها • • عضضت شفتى ، فتألمت ، ولكنها جذبتنى إليها بشدة ، فأطبقت بشفتاى على شفتيها فى قبلة طويلة ، وكان ثوبها قصيرا فوق الركبة ، فمددت يدى لأتحسس لحمها البض ، وأخذت تعضنى مرة ثانية • • عضضتنى فى فمى ، وفى رقبتى ، وفى أذنى ، ثم خلصت نفسها من بين ذراعاى بقوة ، وقالت :

— أرجوك .. أجل هذا الوضوع الآن .. فيما بعد .. فيما بعد .

وكان سائق التاكسي قد تخطى المكان الذى حددته ، ولم أعرف إن كان قد فعل ذلك من باب الذوق أو بسبب سرحانه ، ثملت عليه وطلبت منه أن يعود بنا إلى ميدان وأجرام .

وعندما نزلنا من التاكسى ، كانت برتا تحس بدوار شديد .

كان المقهى الذى وقفنا أمامه فخماً مثل مقهى ماريان تماما .. وكانت هناك فرقة من الأوركسترا تعزف الموسيقى ، وكان هناك كثير من الرواد فى الشرفة، ورفضت برتا أن تدخل إلى المقهى ، فاضطررت إلى أن أشدها من يدها وأدخلها بالقوة .

وعندما أتى الجرسون ، وأبلغناه بطلباتنا ، إعتذرت برتا بأن تتركنى لحظة لتذهب إلى دورة المياه ، وعندما عادت ، أحسست بالعطف نحوها وأنا أتطلع إلى ملابسها الرثة ومظهرها البائس .

وأرادت برتا أن تشغل نفسها بشىء ما حتى يأتى لها الجرسون بالحساء فأخرجت محفظة جلدية صغيرة بها ادوات تقليم الأظافر ، وأخذت تقلم أظافرها ، وكان الطلاء قد اندثر من بعض الأماكن ، فبدت الأظافر أكثر قبحاً مما لو كانت قد تركت بلا طلاء .

ووصل أخيراً الجرسون بالحساء فوضعت برتا المحفظة جانباً، ووضعت بجوارها مشط الشعر الذى كانت عالقة به بعض خصل شعرها.وأسرعت بتناول كسرة من الخبز ، ومسحتها بالزبد ، وناولتها لبرتا ، فأخذتها منى

وقد اكتسى وجهها بحمرة الخجل عندما وقع بصرى على منظر يديها القذرتين وآثار النيكتوتين تحيط بأصابعها .. تلك اليدين اللتين قدمتهما لى من قبل لأراها وكلها ثقة وشجاعة .

وانهمكت برتا فى تنساول بعض قطع الخبز بالزبد إلى أن يأتى لها الجرسون بطبق اللحم المقدد ، وقد مالت برأسها على المنضدة حتى تخفى شهيتها النهمة ، وإن كان ذلك لم يحل دون احساسها بالضيق .

وبعد فترة قصيرة من الوقت ، صوبت عيناها إلى عيناى ، ثم وضعت يدها فوق يدى ، وقالت بالفرنسية :

— اسمع ياعزيزى ..

ولكنها سرعان ما عادت إلى إنجليزيتها المكسرة :

— لن أنسى طريقة حديثك معى .. إن هذه الطريقة تساوى أكثر من ألف فرنك .

وترددت لحظة قبل أن تهتدى إلى كلماتها ، ثم استطردت :

— ولكنك لم تحدثنى عن الموضوع حتى الآن .. إذا كنت تحب أن..

فقاطعتها :

— أجل هذا الموضوع الآن .. أرجو أن لا تظنى أننى غير راغب فيك .. إن ذلك قد يبدو كذباً ونفاقا .. وإنما لنؤجل هذا الموضوع الليلة على الأقل .

فأرخت عيناها من عيناى ، وقالت :

— برتا تفهم ما تريد أن تقول .. برتا لا تحب أن تفسد مشاعرك ، ولكن ...

وتناولت حقيبة يدها ، وأخذت تفتش عن قصاصة من الورق ، وهى تقول :

— ما هو الوقت الذى يناسبك ياعزيزى ؟ متى تحب أن ترانى ؟ ليس من المهم أن تدفع لى .. هل تفهم ؟ متى يمكنك أن تتصل بى ؟ غداً .. ؟ يسعدنى أن ألتقى بك على العشاء ...

وكانت ما تزال تبحث فى حقيبتها عن قصاصة من الورق ، فمزقت لها قطعة من ورق المنشفة التى كانت على المنضدة ، وناولتها إياها ، فأخذتها منى وكتبت فوقها اسمها وعنوانها بحروف كبيرة ، واكتشفت من أول وهلة أن اسمها من أصل بولندى ، أما الشارع فإننى لم استطع أن أهتدى إليه ، ولا أخال أننى سمعت عنه من قبل ، ولما سألتها عنه قالت :

— ألا تعرفه ... ؟ إنه متفرع من ميدان سان بول ... ولكن أرجوك .. لا تحاول أن تزورنى فى الفندق ، فأنا لا أقيم هناك باستمرار.

وألقيت نظرة أخرى على اسم الشارع ، ولكننى لم أستطع أن أذكر أننى سرت فيه مرة واحدة فى حياتى ، أو حتى سمعت عنه ، لا فى ميدان سان بول ، ولا حتى فى أى ميدان آخر من ميادين المدينة .

وقلت لبرتا :

— إذن فأنت بولندية ... ؟

— لا .. أنا سويسرية . ولدت فى بولندا ، على أن الأسم المدون عندك ليس اسمى الحقيقى .

وأحسست ونحن نتناول الطعام بوجود شخص ما يجلس بالقرب منا.

كان رجل متقدم فى العمر ، فرنسى الجنسية، وكان من الواضح أنه مستغرق فى قراءة جريدته، وإن كنت قد ضبطته أكثر من مرة يختلس النظرات إلى برتا من فوق جريدته ، وأحسست من وجهه أنه رجل طيب القلب ، وأنه من الأثرياء . ولا شك أن برتا كانت هى الأخرى تحس بوجوده ، وأنها كانت تختلس النظرات إليه وترقبه من وقت لآخر .

ونازعتنى رغبة قوية فى معرفة الطريقة التى ستتصرف بها برتا فى مثل هذه الحالات ، فاعتذرت لها بحجة ذهابى إلى دورة المياه ، وعندما عدت إلى مجلسى بعد فترة قصيرة ، أدركت من الطريقة التى كانت تنفث بها دخان سيجارتها أن كل شىء على ما يرام ، وأن الأمور تجرى مجرى حسناً .

وحانت منى التفاتة ناحية الرجل الفرنسى المهذب ، فوجدته غارقاً تماما فى جريدته ، فقلت فى نفسى بالفرنسية :

— أخيراً جاء الزبون ....

هل ضايقنى ذلك ؟

أبداً ...

كان كل شاغلى أن أنسحب بطريقة دبلوماسية ، وأن أجد لنفسى مخرجا من هذا الموقف دون أن تحس برتا أننى وجه آخر لستر ونشل

ولحسن الحظ ، مر بجانبى الجرسون ، فسألته عن الوقت ، وعندما عرفت أنها قاربت الواحدة ، قلت لها :

— أنا مضطر لأن أرحل الآن .. لقد تأخرت كثيراً .

وهنا وضعت يدها فوق يدى ،ونظرت إلى، ثم ابتسمت ابتسامة من يفهم الآخر ، وقالت لى :

— لاداعى ياعزيزى لأن تختلق الأعذار .. أنت رجل طيب القلب ، ومتفهم جداً لحقائق الأشياء ، وأنا لا أدرى كيف أشكرك ، ولكن .. أرجوك . . لا تتركنى بهذا الشكل .. إنه يمكنه الأنتظار .

وخرجت كلمة « أرجوك » من شفتيها بشىء من والاستعطاف .

وأومأت برأسها ناحية الرجل الفرنسى ، وقالت :

— تعالى نتمشى قليلا ..

وقمنا نتمشى فى أحد الشوارع الجانبية ، والصمت يكتنفنا من كل جانب . وبعد أن سرنا قليلا ، قالت لى :

— زعلان . . أليس كذلك؟

فقلت :

— بالطبع لا ... وهل أستطيع أن أزعل منك ؟

فقالت :

— قليل من الرجال من يستطيعون التصرف مثلك .

وأخذت تجذبنى إليها بشدة ، حتى أن ساقى كانت تصطك بساقها ونحن نسير فى الشارع،وقلت لها :

— أغلب الظن أنه ليس من العسير عليك أن تمارسى ذلك بدون حب!

وسادنا الصمت مرة اخرى ، ولم نتبادل كلمة واحدة حتي بلغنا

نهاية الشارع . كنت أدرك أن ذهنها مشتت ، وأن الأفكار تنهشها . وعندما بلغنا شارعاً جانبياً يغط فى ظلام دامس ، جذبتنى من يدى ، وقالت لى :

— تعالى نسير فى هذا الشارع ..

وظلت تجذبنى إليها بشدة حتى التقصت ساقى بساقها تماما . وتركت لها نفسى لتقودنى بين الحوائط المظلمة والمبانى الصماء ، وكأننى فى حلم جميل لا أريد أن أفوق منه .

كان صوتها حنوناً ، وكانت الكلمات تتناثر من بين شفتيها كالزبدة. كلمات واضحة مفهومة المعانى ، ولكننى لا أستطيع أن أذكرها الآن ، ولا حتى أن أصدق أنها كانت تعى أى كلمة مما كانت تقول . لقد كانت تتحدث إلى وهى فى حالة إثارة كما لو أن هناك مصيبة حلت فوق رأسها ، وخيل إلى أنها كانت تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث إلى .

وظلت تضغط بأظافرها الطويلة على ذراعى طول الوقت ، وكأنها تريد أن تطوق بفعل الإحساس بالجسد مزيداً من المعانى على كلماتها . وأخيراً وقفنا صامتين بلا حراك .

وصاحت بى قائلة :

— لماذا لا تطوقنى بذراعيك ؟ لماذا لا تقبلنى مثلما قبلتنى ونحن بالتاكسى ؟

وسحبتها من يدها ناحية باب منزل ، ووقفت مستندة بظهرها على

الباب ، فطوقتها بذراعاى بكل قوة ، وأخذت تتحسس أذنى بأسنانها ، فتوقعت أن تعضنى من جديد ، فابتعدت عنها بحركة تلقائية ، ولكنها أمسكت بى من خصرى وجذبتنى إليها فى عنف ، وهمست قائلة:

— برتا تعرف كيف تصنع الحب . ما عليك إلا أن تأمر ، وبرتا تنفذ على الفور . آه . . . إنك لا تعرف ما فعلته لبرتا الليلة . . إنك لا تعرف أبداً .

ومرت لحظة ونحن ملتصقين ببعض على باب المنزل كأنها لحظة أبدية خالدة . لم أحاول أن أقيد حركتها . تركتها تحتوينى بصدرها ، وتعضنى بأسنانها ، وتتعلق برقبتى مثلما تتعلق روح غريق . وهزتنى ، وثرثرت بكلمات غير مفهومة وكأنها طفل جريح . وانتابتنى رهبة شديدة .

هل حاولت استغلال ضعفها ؟

هل حاولت انتهاز فرصة وقوعها فى هذا المأزق ؟

وانفصل جسدى عن جسدها أخيراً ، وما كان ذلك ممكناً إلا بوجود قوة جبارة .

وابتعدنا عن الباب . . .

والموقف أشبه بما لو كنا قد وصلنا إلى منتصف طريق مجهول ليشد كل منا على يد الآخر متمنياً له حظاً سعيداً . . .



ومرت علينا لحظة ونحن ملتصقين ببعض
على باب المنزل كأنها لحظه أبدية خالدة .

وشددت على يدها بالفعل ، وقلت :

— وداعاً . .

وأدرت لها ظهرى ، وسرت خطوات قليلة ليحتوينى الصمت المطبق الذى يسود الشارع .

ولا أدرى لماذا إلتفت إلى الوراء فى ذلك الوقت ، لأننى حينما إلتفت إلى الوراء رأيت برتا واقفة حيث تركتها . . فوقفنا هكذا ننظر إلى بعض فى بلاهة .

كان من المستحيل أن أقرأ الكلمات المرسومة على وجهها ، وإن كنت قد استطعت أن أتكهن بما يحمل وجهها من معانى .

عدت إليها . .

كان من الضرورى أن اقول لها شيئاً ، وأى شىء .

وتمنيت أن أقول لها :

— خذينى . . افعلى بى ما تشائين ، ولكن لا تتركينى .

إلا أننى قلت :

— أليس من المحتمل أن يكون قد غادر المقهى هذه الساعة ؟

فقالت :

— لا . إنه ما زال هناك .

ولكن ضعف صوتها فضح كذبها ، فقلت :

— اسمعى يا برتا . . .

ثم دسست يدى فى جيبى وأخرجت مجموعة من الأوراق النقدية وضعتها فى يدها ، وقلت :

— أعرف كيف تسير الأمور فى مثل هذه الحالات. خذى هذا لك

وأحسست وأنا أدس الأوراق فى يدها ، أننى أدس أوراقاً ماتت فى فصل الخريف . على أننى قلت :

— والآن . . وداعاً يا برتا ! .

ثم أضفت بالفرنسية :

— حظاً سعيداً . . .

وابتعدت عنها . وأخذت أسرع فى خطاى .

وما كدت اصل إلى نهاية الشارع ، حتى سمعتها تناديني بأعلى صوتها ، فاستدرت إلى الوراء ، وإذ بى أجدها تركض خلفى ،وهى تلهث وعندما اقتربت منى قالت :

— لقد أخطأت . .

ولوحت بيدها بورقة نقدية كبيرة ، ثم قالت :

— أنظر . . .

فقلت لها :

— ولكننى لا أرى أى خطأ فى ذلك .. إنها لك .

فصاحت دهشة بالفرنسية :

— يا إلهى ! ! يا إلهى ! ! ولكن هذا كثير . . هذا كثير جداً . . إنك لم تقصد ذلك بالطبع .

واقتربت مني ، وأمسكت بذراعاى ، وخرت أمامى جاثيـــة على ركبتيها ، فرفعتها إلى أعلى ، وصحت بها فى قسوة :

— ماذا دهاك يا برتا ؟ ألم يعاملك رجل من قبل بمثل هذاالعطف؟ ولا واحد يا برتا . . ؟

وذابت كلماتى وسط الظلام الصامت .

ولم أستطع أن أعتذر لها. كان حلقى جافاً ، وأحسست بأن الوقت لا يتسع لمزيد من الـكلام !

ولبثت واقفة أمامى . . يداها تخفى بهماوجهها ، وجسدها يتشنج بالبكاء ، ومنظرها رهيب .

وكنت أحس بدموعها تصرخ وتصيح وسط الصمت المطبق الذى شابه صمت القبور .

وتصارعت فى نفسى أحاسيس شتى . .

أردت أن أطوقها بذراعاى .. وأردت أن أقول لها شيئاً ..وأردت أن أخفف من العذاب الذى تتلظظ فيه . ولـكننى لم أقوى على شيء ، فلقد أحسست بأننى قد تحجرت فى مـكانى !

وأدرت لها ظهرى ، وجريت بعيداً عنها بأقصى سرعة ممـكنة حتى غاص صوت نحيبها فى لجة الشوارع المتلألأة البراقة .

* * *

أهم مصادر الكتاب

(1) William A. Gordon, *The Mind and Art of Henry Miller*, Lowe and Brydone (Printers)Limit, London,1968.

(2) Lawrence Durrell, *The Best of Henry Miller*. Heinemann, Londan, 1961.

أهم مؤلفات هنرى ميللر

1) Tropic of Cancer, 1934.

مدار السرطان ١٩٣٤

2) Aller Retour New York, 1935.

العود إلى نيويورك ١٩٣٥

3) Black Spring, 1936.

الربيع الأسود ١٩٣٦

4) Max and The White Phagocytes, 1938.

ماكس والبلاعم البيض ١٩٣٨

5) Tropic of Capricorn, 1939.

مدار الجدى ١٩٣٩

6) The Cosmological Eye, 1939.

عين الكون ١٩٣٩

7) The World of Sex, 1940.

عالم الجنس ١٩٤٠

8) The Colossus of Maroussi, 1941.

تماثيل ماروسى ١٩٤١

9) The Air-Conditioned Nightmare, 1945.

كابوس مكيف الهواء ١٩٤٥

10) Remember to Remember, 1941.

تذكر أن تتذكر ١٩٤١

11) Sexus : 2 vols., 1949.

الجنس : جزءآن ١٩٤٩ (الـكتاب الأول من ثلاثية :
The Rosy Crucifixion)
على خشبة الصليب الأحمر)

12) Plexus : 2 vols., 1953.

الضفيرة ١٩٥٣

13) A Devil in Paradise, 1956.

ابليس فى الجنة ١٩٥٦

14) Nexus, vol. 1.1959·

الشبكة ١٩٥٩

فهرس

رقم الإيداع ٦٠٣٣/١٩٧١ م

هـذا الكتـاب

يرتبط ذكر هنرى ميللر بالأدب الجنسى المكشوف . والمحاولة التى قام بها لتصوير الجنس وتشريحه فى رواياته الخالدة مثل «مدار السرطان» و«مدار الجدى» و ثلاثية « على خشبة الصليب الأحمر » ، جعلته يتربع على عرش الأدب المكشوف بلا منازع . لقد تحول الأدب الفاضح على يديه من مجرد كونه أدباً يهدف إلى إحساس الإنسان بالإشمئزاز من الجنس والخوف منه لإرتباطه بعقدة الذنب والخطيئة ، إلى كونه جزءا من الحياة ، دون أن يفتقر أى من العناصر الأساسية فيه ، وهو نفس ما يحدث للحب والجنس . ولذا، فإن كتاباته الجنسية ترتفع فوق مستوى الابتذال، وتكون فناً رائعاً مصداقاً للحياة .

وفلسفة ميللر عن الجنس هى أن الجنس والحب توأمان لا يفترقان ، قد يتعارضان ويتناقضان ولكنهما متلازمان دائماً . بل إن الجنس يجب أن يقوم أولا وبكامل طاقته قبل أن يشترك الإنسان فى أى علاقة حب . وإن ربط الحب بعلاقة جنسية أو العكس ، لهو قادر على أن يسبب خطر القضاء على القدرة . والعجز الجنسى فى العصر الحديث لا يرجع سببه إلى تذوق الجنس وممارسته ، وإنما إلى تأكيد صفات الحب والفضيلة وقدسية الزواج ، وطهارة الأمهات والشقيقات . والعالم اليوم قد نضب مثلما تنضب البغى، وليس هناك أمل إلا فى الجنس ليعيد إصلاح الأفراد والنفوس

وكتاب « شيخ الأدب الجنسى المكشوف » لا يكتفى بالن

فهو يقدم لنا « ماكس » اليهودى البائس مضاجع الذكور ، و

التى تمثل الخير والشر ، و « برتا » المومس الغير فاضلة التى تؤم

جسدها لرجل إنما تعطيه جسداً خالصاً من الذهب .

والكتاب بعد ذلك كله دعوة إلى أدب جديد فى عصر جد

